الجزء الأول



أمراض الاستبداد

المواجهة بين موسى وفرعون





أمراض الإستبداد

(الجزء الأول)

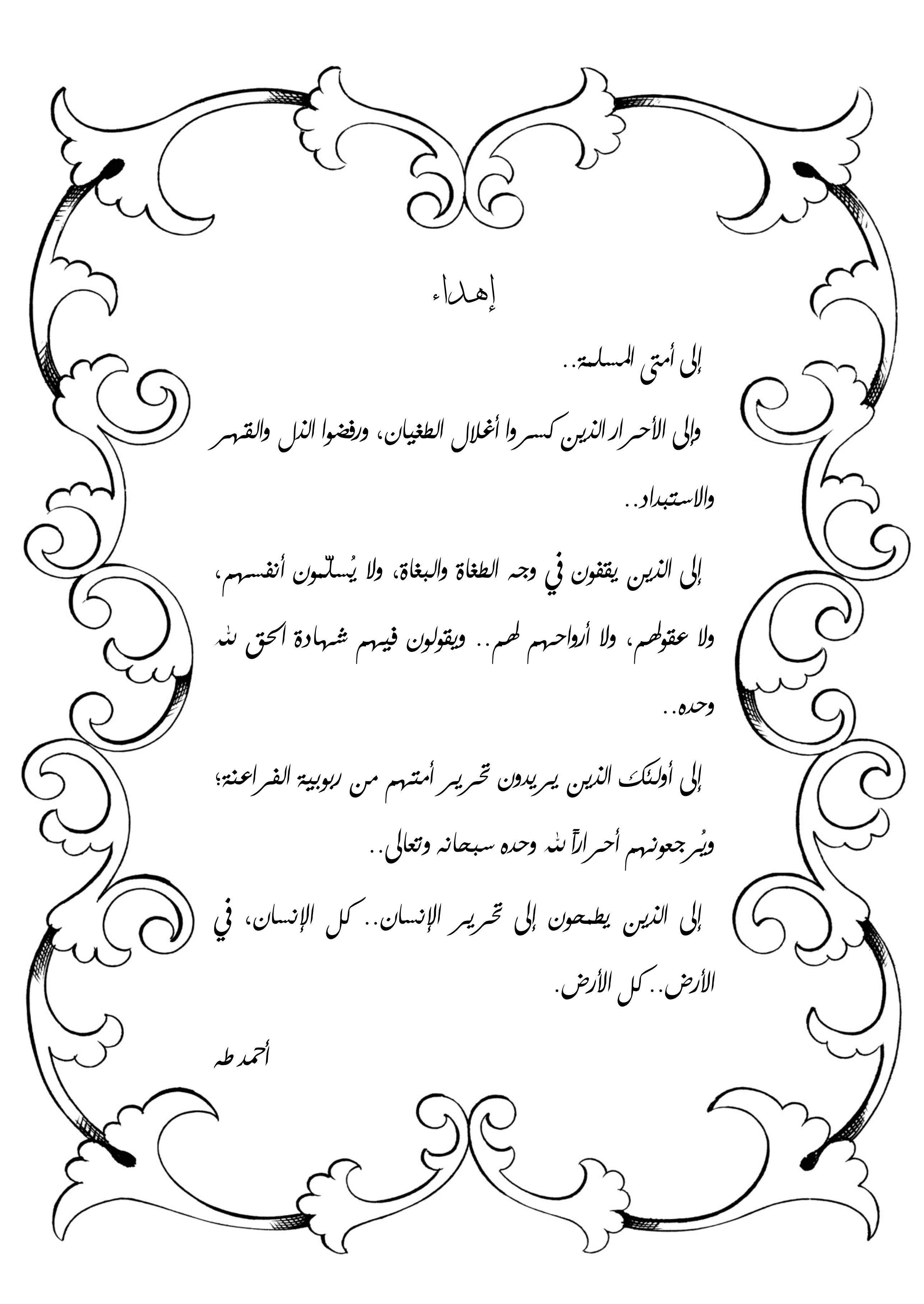
موسى وفرعون

الطبعة الإلكترونية الأولى **Pdf**

(1439 هـ - 2018 م)




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى أمتي المسلمة..

وإلى الأحرار الذين كسروا أغلال الطغيان، ورفضوا الذل والقهر والاستبداد..

إلى الذين يقفون في وجه الطغاة والبغاة، ولا يُسلّمون أنفسهم، ولا عقولهم، ولا أرواحهم لهم.. ويقولون فيهم شهادة الحق لله وحده..

إلى أولئك الذين يريدون تحرير أمتهم من ربوبية الفراعنة؛ ويُرجعونهم أحراراً لله وحده سبحانه وتعالى..

إلى الذين يطمحون إلى تحرير الإنسان.. كل الإنسان، في الأرض.. كل الأرض.

أحمد طه

فهرس



بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، وبعد:

كَرّم الله جَلَّجَلَالُهُ الإنسان، بأن خلقه، ونفخ فيه من روحه، فوهب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإنسان الوجود والحياة ابتداء، والإدراك، والعقل؛ فحمل أمانة "الاختيار" وأمانة "الإرادة" وأمانة "خلافة الأرض" فهو سيد هذه الأرض، اصطفاه الله من بين ملايين المخلوقات، وسخر له ما في السموات والأرض، فكان هذا التكريم وهذا العقل، وهذه الروح، والنفس المتكونة من وراء كل ذلك تحمل خصائص أصيلة – لا طارئة – يجب اعتبارها في معاملة هذا الإنسان.. المخلوق المتفرد.

ومن آداب هذه المعاملة هي:

الحرية: فالإنسان مخلوق "حرة الإرادة" يحمل أمانة "الاختيار الحر" الذي سيُجزى عنه يوم الحساب في دار العدل، والحفاظ على حرية الإنسان كانت على رأس أهداف "الجهاد في سبيل الله" فرسالة الإسلام تعني أول ما تعني بتحرير الإنسان، وتحرير شعوره؛ ليكون قادراً على الاختيار، مالكاً له.

والإنسان لا يكون شيئاً ذا قيمة متكاملة بدون هذه الحرية، فالحفاظ على هذه الحرية، والتعامل معها هي حق إنساني أصيل، وأول معلم من معالم اكتمال الإنسانية.. وكل الذين يحاولون استلاب المعنى الحقيقي للحرية؛ بجعل عبادة الشيطان، والهوى، والشهوات حرية إنما يستعبدون الإنسان، ويذلونه.

التكريم: ولقد سبق التكريم من الخالق للمخلوق، فحق للمخلوق أن يُكرم أخاه، فليس هناك قيمة مادية تعلو قيمة الإنسان أو تهدر من أجلها كرامته.

والكرامة ضد الإهانة والقهر والإذلال، فلا يصح أن يُعامل الإنسان بإهانة أو احتقار، فكرامته محفوظة، ومُعتبرة.. ولا يأت عليها أحد. حتى في طرق العقاب التربوي للأبناء، لا يصح إهانة كرامة

الطفل مهما صغر سنه، فإحساس الطفل بذاته يبدأ من مرحلة مبكرة جداً من عمره، لا يصح أن نهدر كرامته أو نستخف بمكانته، فيكون العقاب – عند الحاجة – فيه احترام للكرامة، ويجب تزكية جانب الكرامة عند الطفل، ومن ثم في كافة مراحل العمر.

الاحترام: يجب كل إنسان أن يشعر بالاحترام، وحسن الأدب، بل جعل الإسلام "حسن الخلق" أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، بل وجعل المسلم الحق هو الهين اللين القريب السهل الذي يألف ويُؤلف.

وفاء الحقوق: ومفهوم الحق والوفاء به مركوز في فطرة الإنسان، ويحدد معالم هذا الحق الإسلام.. والوفاء بالحقوق هو لكل إنسان بغض النظر عن دينه وجنسه ولونه وعرقه... إلخ.

الأمانة: وكون الإنسان مُستخلف في هذه الأرض، ويحمل أمانة أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال.. فالأمانة مع هذا الإنسان حقيقة كبرى يجب الانتباه إليها، فالأمانة في العلم والتعلم، والأمانة في المعاملة والآداب، فلا يخدع أحد هذا الإنسان، ولا يضلله، ولا يستلب عقله، ولا يزين له الباطل.

العدل: والعدل هو حق لكل الناس، لا يظلمهم أحد، ولا يظلموا أحداً، وهو أحد أهم مقومات الحياة البشرية، ولا تستمر الحياة السوية بدونه، وحقيق بالإنسان أن يقيم العدل وأن يعمل به.. فإذا تحقق، انتقل لأفق أسمى وأعلى وهو "الفضل والإيثار".

الرحمة: لقد خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الإنسان وهو به رحيم، رؤوف، ودود.. وأمر الناس كلها بالتراحم فيما بينهم؛ حتى يشيع الود والوئام الذي يعطي للحياة بهجة وجمالاً، والذي يفسح النفس للتعارف والتحاب والتناصح، ويضيق المجال لـ" الغل" الذي في الصدور، ويحسر مادة الحسد والبغضاء، ويضيق مساحة "وساوس الشيطان" ومحاولة إفساده العلاقات بين الناس.

الاهتمام: قضية وجود الإنسان كلها على الأرض، هي ابتلاء الله له، هل سيعبد الله مخلصاً له الدين؟ أم سينحرف عن الطريق، وتتفرق به السُبل عن صراط الله المستقيم؟! وقضية الرسالات السماوية هي إنقاذ الإنسان، ولما كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة العالمية لكل الناس، يجعل قضية

"الاهتمام" بالإنسان كل الإنسان، في الأرض كل الأرض قضية أصيلة في المنهج والتصور الإسلامي.. الاهتمام بـ "البلاغ" و"الدعوة" و"الجهاد" و"الحرية"؛ لتحطيم القوى المعتدية التي تقف في طريق هذا الإنسان تحول بينه وبين سماع الهدى، وتحرمه من جنة عرضها السموات والأرض، الاهتمام بـ "الإنسان" – وإنقاذه من النار، والاهتمام بـ "إنسانيته" وبنيته النفسية قبل أن يحطمها الطاغوت والشيطان، ويُفسدها – والاهتمام بكرامة الإنسان وإقامة الحق والعدل له.

الحنان: وفيه اعتبار "الضعف الإنساني"، وهو أمر زائد على الرحمة، ففيه المبالغة في الرحمة لا سيما بالضعفاء والمساكين والفقراء، وهذه المعاملة تحفظ كرامة الإنسان، وتقوي من عزيمته، وتفجر طاقته، كما ترقرق الحب والرحمة في القلوب.

وغيرها مما تحبه النفس، ومما تستقل الفطر السوية بمعرفته.. فكل ما تحبه النفس من طيب معاملة، فهو كذلك لكل نفس، وعلى الإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

***

ونرى من المنهج والتصور الإسلامي أن الإسلام حريص على الحفاظ على البنية السوية للإنسان من (حفظ حريته، وحفظ كرامته، ومن تكريم له، ومن احترام إنسانيته، ومن وفاء حقوقه، ومن حق الأمانة معه، ومن العدل معه، والاهتمام به... إلخ) بغض النظر عن دينه أو جنسه أو عرقه... إلخ، ذلك أن الإسلام يهدف ابتداء إلى الحفاظ على الفطرة السوية؛ حتى عندما يدعو الناس إلى الدخول فيه، واتباع صراط الله المستقيم تكون نفوسهم مستقيمة ابتداء، ومؤهلة لحمل رسالة الله، والوفاء بالأمانة، وإخلاص العبودية لله.

وعندما تفسد الفطر، وتتهدم البنية السوية للإنسان أو تفسد بفعل عوامل وأمراض الاستبداد – وغيرها – يكون هذا الفساد، وهذه الأمراض عائقاً أمام القيام بهذا الدين، ويصبح من الناحية العملية الواقعية أن حامل الرسالة بهذه الأمراض قد يستوي مع من لا يحملها، بل قد يُسيء المريض إلى الرسالة التي يحملها بسلوكه وخُلقِه وفكره! فيصبح علاج انحراف الفطرة، والبناء السوي للنفس الإنسانية ضرورة لا مفر منها؛ فلا بد من إعادة تأهيل الإنسان ليعود على الصورة الصحيحة التي فُطر عليها.

ولقد تعرضت البشرية لصنفين من معاملة الإنسان.. كل منهما ظلم شديد له:

الأول: الفرعونية والطاغوتية التي قهرت وأذلت الإنسان؛ فمحقت كرامته، وقست عليه، وسلبت حقوقه، وأذلته، وحوّلته إلى مجرد رقم ومتاع وخدم للطغاة؛ حتى تحول الإنسان إلى صورة أضل من الحيوان، ومع طول الاستبداد الذي يقهر الإنسان كل هذا القهر.. تصيبه أمراض العبودية للبشر، والاستمتاع بهذه العبودية! وعدم الرغبة في الفكاك منها.. وهذا ما سنحاول – إن شاء الله – تبيانه في هذا الكتاب.

والثاني: تأليه الإنسان، وإنكار الغيب، ووضع الإنسان مكان الإله.. كرد فعل على "الاستبداد" فغالوا في صياغة "حقوق الإنسان" وإهدار حقيقة وهدف وجوده في هذه الحياة ابتداء، فطغت واستبدت هي الأخرى في محاولة رد كرامة الإنسان التي سلبها الفراعنة والطواغيت.. فانتقلت إلى الحياة "العلمانية – الإلحادية" الخالصة.. التي تريد متاع الدنيا، والهرب من أي تكاليف تضبط الحياة على الصورة السوية الصحيحة تحت شعارات فارغة ومزيفة من "الليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة[1] وتحطيم الأخلاق والتخطيط الممنهج لتدمير الفطرة الإنسانية السوية... إلخ" !

وإجمالاً لذلك يقول تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّه لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : 70] ظلموا أنفسهم جميعاً، ظلموا أولئك الذين استبدوا بالإنسان وقهروه، وظلموا أولئك الذين طغوا بالإنسان ليفجر أمامه.. وما وصل فيهم أحد إلى صراط مستقيم، والظلم ظلمات، وقد خاب من حمله، فمن يَظلم.. ستدور عليه الدائرة فيَظلم نفسه في النهاية.

ومن وراء هذا التيه والتخبط يأتي الإسلام ليضع الإنسان على صراط الله المستقيم، في صورة غير متكلفة ولا متصنعة فهو دين الفطرة.. فلا يهدر كرامة الإنسان، ولا يجعله عبداً لأحد سوى خالقه، ويحارب الفراعنة والطواغيت، ومن يريد أن يستبد بالناس؛ ليُفسد حياتهم وفطرهم، وينشر فيهم الخوف والقهر والظلم والفساد والبغي، ويواجه كذلك من يريد أن يخرج بالإنسان عن إطار عبوديته

---

(1) الحداثة: هي مرحلة سيادة العقل على كل شيء. ما بعد الحداثة: هي مرحلة تفكيك المفاهيم الصلبة والتحرر من كل الحقائق والمفاهيم والمقدسات.

لله، ويجعل الإنسان كأنه يمكنه أن يكون في غنى عن الله ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق :6، 7]

***

والأمة الآن تعاني الأمرين: تعاني أمراض الاستبداد التي انتشرت بفعل الفرعونية والطواغيت، وتعاني محاولات "التبشير" بأن الخلاص هو في "العلمانية الإلحادية وقيم ما بعد الحداثة" التي عبدت المادة والشهوات وألّهت الإنسان، ونسيت الله والدار الآخرة، فأنساهم أنفسهم، واتبعوا أهوائهم، ويحسبون أنهم مهتدون.

والخلاص هو وحده في اتباع الكتاب – القرآن الكريم – والدوران معه حيث دار.. وفي بيان وعلاج أمراض الاستبداد سنجد في هذا الكتاب – إن شاء الله – زاداً كبيراً نستقي منه الترياق الشافي لهذه الأمة بإذن الله، وعند شفاءها وعودتها من جديد، لن تكون بحاجة إلى التبشير بالعلمانية وعبادة الدنيا – كرد فعل على الاستبداد والفرعونية – بل ستجد هذه الأمة أن البشرية كلها بحاجة إليها، وبحاجة إلى الترياق الذي تحمله؛ لتعود هي الأمة الشاهدة والمُعلمة التي عليها أن تخرج البشرية من هذا التيه، ومن اتباع الشيطان والهوى.. الذي يقف يوسوس ويُزين لأهل الفرعونية الطاغوتية، ولأهل العلمانية الإلحادية.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً ﴾[الإسراء : 82]

***

ومن متابعة الأحاديث التي وردت في اتباع الأمة سنن بني إسرائيل – أهل الكتاب – نجد جملة من الأحاديث النبوية الشريفة، تكشف لنا عن الإعجاز النبوي الرباني، وترفع الحجاب عن المستقبل وعن الحالة التي ستؤول إليها هذه الأمة – وقد وصلت إليها بالفعل! – مما يساعدنا في "دقة" التشخيص دون غلو أو شطط، ودون تميع أو إخفاء لحقيقة المرض، ثم من بعد ذلك التشخيص الدقيق الصحيح.. يأتي العلاج بإذن الله.

ومن هذه الأحاديث:

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ"** [صحيح البخاري/3456]

- عن شداد بن أوس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **" لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ "** [مسند أحمد/16685]

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **" لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جُحْرَ ضَبٍّ ، لَتَبِعْتُمُوهُمْ فِيهِ "، وَقَالَ مَرَّةً : " لَتَبِعْتُمُوهُ فِيهِ. "** [مسند أحمد/11679]

***

ولكن لماذا اتبعت الأمة سنن بني إسرائيل؟

إن هذه الأمة في مراحل تكوينها الأولية، وصفها الله جَلَّجَلَالُهُ بأنها خير أمة أخرجت للناس؛ حيث حققت شروط "الخيرية" المتمثلة في: الأمر بالمعروف.. وهي وظيفة الأنبياء، والقيام بهذه المهمة بين العالمين، يجعل أهلها خير أمة، ونهت عن المنكر، وحسمت مادة الشر، وقطعت عبادة الشيطان وغواياته.. وجاهدت في سبيل ذلك، ومن وراء كل ذلك "الإيمان بالله" الإيمان الذي خالط حقيقته القلوب أولاً ثم انعكست آثاره في واقع الحياة ثانياً.. فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران : 110]

وأما أهل الكتاب فقد فسقوا عن دينهم ودعوتهم، ولُعنوا على لسان داوود وعيسى ابن مريم، لما حادوا عن القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ومن وراء ذلك: الفسوق عن دين الله جَلَّجَلَالُهُ، وخروجهم من الخيرة والاصطفاء والتفضيل الذي تفضل الله به عليهم بإرسال كوكبة كريمة من الرسل – عليهم السلام – ومن الكتب "التوراة والإنجيل"، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ

كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ. كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة :87، 79]

وظلت الأمة مستمسكة بهذه الخيرة، طالما حققت الشروط، وظلت حاملة لهذا اللواء في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وفي عهد الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.. ثم وقع ما حذر منه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إذ جاءت الدنيا الحلوة الخضرة، وانتهى العهد الراشدي، وجاء المُلك والسلطان والمتاع، وجاء الصراع والتقاتل عليه !

فقال رسول الله ﷺ: "**وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**" [صحيح البخاري/ 4015]

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَارِحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ هَذَا الأَمْرَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، وَكَائِنًا خِلافَةً وَرَحْمَةً، وَكَائِنًا مُلْكًا عَضُوضًا، وَكَائِنًا عُتُوَّةً وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الأُمَّةِ، يَسْتَحِلُّونَ الْفُرُوجَ وَالْخُمُورَ وَالْحَرِيرَ، وَيُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُرْزَقُونَ أَبَدًا حَتَّى يَلْقَوُا اللَّهَ عز وجل**" [السنن الكبرى للبيهقي/ (8 : 157)] (1)

***

ونلحظ من قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم أنها كانت تدور على محورين رئيسيين:

المحور الأول: محور المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون، وهو موضوع هذا الجزء من الكتاب.

المحور الثاني: محور المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقومه الذين أصابتهم أمراض الاستبداد – فساد النفوس – التي أحدثها الفراعنة في نفوس بني إسرائيل، وهو المحور الأشد والأصعب، والذي أخذ مساحة واسعة من آيات القرآن الكريم؛ لتساعد هذه الأمة في الشفاء إن أصابها مثل ما أصاب بني إسرائيل، وهذا هو موضوع الجزء الثاني من الكتاب إن شاء الله.

والله نسأل أن يهدينا ويوفقنا لما يحبه ويرضاه، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

---

(1) والحديث – فيما أرى – صحيح المتن يُصدّقه واقع الأمة وتاريخها وله شواهد أخرى، ولكن في سنده مقال، فيه (الليث بن أبي سليم) وقد روى له البخاري ومسلم، إلا أن بقية شيوخ الحديث ضعّفوا حديثه، ووصموه بالاختلاط.



جاءت قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون في سور كثيرة من القرآن الكريم، ونلحظ أن جميع السور كانت مكية، وهي حسب ترتيب المصحف: [الأعراف - يونس - هود – الإسراء – طه – المؤمنون - الشعراء – النمل – القصص - غافر - الزخرف – الدخان] ولعل الحكمة من ذلك هو التربية المبكرة للأمة المسلمة؛ لمواجهة "فرعونية قريش".. ولمواجهة ما سيظهر من فراعنة وطغاة فيما بعد.

وكانت منهجية البحث هي: الحديث فقط عن "المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون" وأرجأت الحديث عن بني إسرائيل في الجزء الثاني من الكتاب – إن شاء الله – واقتطعت قصة موسى وفرعون من سياق السور للتركيز على موضوعها، ولكن قراءة السور بأكملها هو المطلوب، وهو الذي يحقق غرض القرآن، فمقدمة السورة، وموضوعها، وسياقها، وأهدافها، ومناسبتها، وخاتمتها، لا شك أنها تؤثر في جميع جوانبها، وتحقق تمام الغاية منها، كمثل: سورة طه، والأعراف، والقصص، وهود، وغافر... إلخ، فكل سورة شخصية فريدة، وروح واسعة، وجو مختلف، وتربية حكيمة..

والحمد لله الذي وفق العلاّمة الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره "في ظلال القرآن" إذ تحدث عن سور القرآن كوحدة موضوعية متكاملة، وفي "تفسير المنار" للشيخ الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و"التحرير والتنوير" للعلاّمة الشيخ الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ إضافات وأنوار ساطعة لمن شاء المزيد.

وجاءت السور مُفصلة - وأخرى مُجملة - لتُبين في كل سورة حلقة من حلقات المواجهة؛ لتتعلم الأمة الحكمة والدرس المستفاد، ومن خلال استعراض آيات القرآن الكريم في قصة المواجهة هذه، نجد أن المعركة هي: التوحيد في مواجهة الشرك، والإسلام في مواجهة الجاهلية، وقوة الإيمان أمام قوة الطاغوت..

ونجد أن هذه المعركة قد واجهت وخاضت جميع حلقات الصراع المتمثل في:

- **معركة العقيدة والإيمان.**
- **معركة المفاصلة مع الكفر والفرعونية الطاغوتية، واستعلان الموقف الواضح التام منها.**
- **معركة التشويش والإساءة، وانتقاص قدر حامل الرسالة.**
- **معركة خداع الجماهير.**
- **معركة المراوغة والتكذيب بالآيات.**
- **معركة استلاب الوعي.**
- **معركة الثبات والصمود.**
- **معركة تفريغ القضية من مضمونها.**
- **معركة إرهاب الأتباع.**
- **معركة الكشف عن الطبيعة النفسية للفرعون وأتباعه من الملأ ومن العبيد.**
- **مشاهد الإيمان الراسخ، والإيمان على حرف.**
- **معركة المواجهة الكلية الشاملة التي تريد الاستئصال الشامل.**

وفي كل معركة نلحظ خطاً رئيسياً كان القرآن يريد التركيز عليه والتمحور حوله؛ ليجعله هو القضية الأصلية التي يجب الانتباه لها، واليقظة عندها، والانتصار فيها، وهي: الإيمان بالله، والكفر بربوبية البشر، وطغيانهم، وطاغوتهم، والخلاص من فسادهم وإفسادهم وبغيهم.. وكانت "معركة المفاصلة" معركة مصيرية يجب الانتصار فيها، وتحديد خطوط الصراع فيها، حتى لا يقع التماهي أو التمييع مع الفرعون ونظامه، أو ينخدع أحد في إمكانية "الإصلاح والتوافق" مع الطاغوت، فالتوحيد لا يقبل بنظام الفراعنة والطواغيت؛ ويجعل الدين كله لله.. سواء في الاعتقاد أو العبادة أو التشريع ونظم الحياة.. وبالتالي يستحيل التلاقي مع الفراعنة في أي نقطة، وكذلك الفراعنة لا تقبل الاستسلام لله وحده لا شريك له، لما في نفوسهم من كِبر وعلو وفساد في الأرض، أوردهم المهالك!

ومعركة مواجهة الفراعنة، وبيان الحق فيهم.. تعتبر من أهم المعارك، وأولى المعارك التي يجب الانتصار فيها عندما يواجه المؤمنون في كل جيل حالة كحالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الفراعنة، ومثلما حدث مع نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والجاهلية من حوله تبحث عن نقطة للتماهي والتمييع والمداهنة، وهو يُصر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ على مفاصلة واضحة، وإيمان لا لبس فيه، وتوحيد لا شرك فيه، ورد الأمر كله لله، والدين كله لله، وقال لهم: "والله يَا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ". [تاريخ الطبري]

وقد جعل الإسلام قول الحق في الطغاة من أعظم أنواع الشهادة في سبيل الله، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ** ". [المستدرك على الصحيحين/ (3 : 191)]

ثم بعد بيان الحق، وإقامة معالمه، وتمام رحلة الدعوة.. لا بد من مرحلة المواجهة.. مرحلة تحرير الإنسان، ومقاومة الطغاة والطواغيت والفراعنة، مرحلة رد الكرامة الإنسانية.. بل رد الإنسانية ذاتها المغتصبة على يد هؤلاء الطغاة، فكان الجهاد في سبيل الله[1].

والآن إلى المناقشة التفصيلية للمواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث جانب الإيمان والإسلام لله، وبين فرعون اللعين حيث جانب الكفر والكبر والطغيان.

***

(1) راجع – إن شئت – بحث: "عقيدتنا الجهادية" (على مدونة أمتي).



يقول الله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا

طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّـهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

سورة الأعراف أول ما نزل من القرآن المكي يُبين قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، وجاء فيها: (أساليب فرعون في رد وتكذيب الدعوة، وقصة إيمان السحرة، ودور ملأ فرعون – الفئة المنتفعة – في الإفساد والتكذيب، وبيان أثر الاستبداد وطول الطغيان في عدم الصبر على الدعوة وتكاليفها، وأخيراً بيان سنن الله في المكذبين).

| | |

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

تبدأ الآيات بقضية "الظلم" و"التكذيب" بالآيات التي جاء بها الرسول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون، وتوجه الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون معه في مكة – حيث الاضطهاد والتعذيب والتكذيب – إلى "النظر في عاقبة المفسدين" وإلى التأمل في "سُنة التكذيب" بآيات الله، والمصير المحتوم الذي ينتظر المُكذب، ما لم يرجع ويتوب.

وتُشير الآيات إلى أن الفساد – سواء الفساد الروحي أو المادي – أدى إلى "تكذيب" الآيات البيّنات، وإن عدم مواجهة النفس لما حل بها من فساد والاستسلام له، وعدم مواجهة المجتمع للفساد، وقمع المفسدين، وممالأتهم والتماهي معهم.. سيؤدي حتماً – في النهاية – إلى سوء العاقبة.

وهكذا أجملت آية واحدة القضية كلها.. ثم فصلتها، ليستبين الرسول والذي معه سبيل المجرمين.. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام (55)].

| | |

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يُبين هنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طبيعة وحقيقة رسالته.. إنه رسول من "رب العالمين" رب كل شيء ومليكه، والربوبية تعني القوامة على المخلوق، وتعني الخضوع والذلة والعبودية، وتعني المُلك والسلطان لله رب العالمين.. فهو رسول من هذا الرب إلى فرعون مخلوقٍ يحسب أن ما فيه من مُلك ومتاع وسلطان قد جعله إله في الأرض، كما تبجح بالقول عنه نفسه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص (38)]. أي رب ومالك لكم ! وكَون موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسول من رب العالمين.. فحقيق عليه ألا يقول على الله إلا الحق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسمعه ويراه، وجاءهم بالمعجزة المادية القاهرة.. التي تُثبت بعثته ورسالته، وهو يطلب: "الخروج ببني إسرائيل" من تحت نظام الفرعون، فيريد من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُرسل لبني إسرائيل خاصة، ولم يكن رسولاً للناس عامة كبعثة محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.. وهو يريد هداية قومه، وإقامة شرع الله فيهم، وهذه صورة تستحيل عملياً تحت نظام فرعون، فبني إسرائيل تحت حكمه، ويسومهم سوء العذاب، ولا سبيل لتحقيق الدعوة، وإقامة الدين، وتحقيق الرسالة، وإتمام الشرع.. إلا بـ "التحرر" من أغلال وآصار فرعون ونظامه، فبدأ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعوته بأمرين:

- بيان حقيقة دعوته ورسالته للجميع لفرعون وقومه، ولبني إسرائيل.
- طلب "تحرير" قومه الذي أُرسل إليهم.

| | |

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وهنا يحاول فرعون تحدي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطلبه للمعجزة المادية القاهرة للعقل، والخارجة عن قدرة البشر في التصور والإدراك.. وطلب المعجزة – في هذه الحالة – ليس لـ "الإيمان والاستسلام" لرب المعجزة.. بل لمحاولة "الهرب والتعجيز" وإلا فالإيمان لا يحتاج إلا معجزات مادية قاهرة.. فنظرة واحدة للوجود من حول الإنسان، بل نظرة واحدة للإنسان نفسه كافية للهداية والإيمان.. والله يسأله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور (35)]. ويجيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [المرسلات (20)]. نظرة واحدة كفيلة بالإيمان، بل هو مركوز في فطرة الإنسان، وناطق به الوجود كله.. وإرسال الرسل وإنزال الكتب، إنما هي رحمة الله وفضله على عباده حتى يُذكرهم، وحتى يهدي – من يشاء – إن ضل عن الطريق..

إذن، الرسالة رحمة وفضل ونعمة وحنان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده، تستوجب عند الإذن بمجيئها وبمجيء رسولها بالشكر وإحساس الفضل والامتنان لخالق الأرض والسموات.. أن يتفضل على مخلوق من ضمن ملايين مخلوقاته بالتكرم والتوجيه وبالهداية.. وعليه فهذه الرسالة لا تتطلب معجزة مادية، بل تتطلب عبودية خالصة، وإحساس عميق بالحمد والشكر لرب الأرض والسموات.. ولكن رحمة من الله لمن في قلوبهم شك، ولمن أحاطت بهم الجاهلية من كل سبيل، ولمن قعد لهم الشيطان على صراط الله المستقيم يحولهم دونه.. تأتي المعجزات المادية؛ لتقطع الشك، وتريح العقول، وتُطمئن القلوب.

| | |

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

هنا يقف "الملأ" من قوم فرعون، وهم فئة المنتفعين من نظام فرعون.. وأصحاب المصالح المادية، والدنيوية، والفئة المرتبط متاعها بوجود فرعون، وهي تدافع عن فرعون أكثر من دافع فرعون عن نفسه؛ لأنه لا تتم مصالحها إلا بنظام فرعون، وهي ارتبطت به ارتباطاً عضوياً، وصارت جزءاً منه، لا تستطيع التحرر منه، ولا العودة من باطله.. وهذا "الملأ" موجود في كل نظام طاغوتي فرعوني، ربط وجوده بوجود النظام ينصره ويدافع عنه بالباطل وبالحق سواء.. وهو عكس النظام الإسلامي الرباني.. الذي لا مصلحة فيه إلا إقامة الدين، وتحكيم الشرع، وحمل الرسالة، وإقامة الحق والعدل.. ويرد الظالم، ولا ينصره على ظلمه وبغيه، فهو مرتبط بـ "الكتاب" لا بـ "النظام" ويدور مع الكتاب حيث دار.

وبدأت معركة "الدعاية الكاذبة" وفنون الخداع والتأثير.. والضرب على الأوتار التي تهيج الجماهير، وتصرفهم عن القضية الأصلية التي كانت تتحدث عنها الآيات السابقة في بساطة وسهولة ويسر.. رسول من رب العالمين يُبطل دعاوى فرعون بالربوبية على قومه، ويريد أن يرسل بني إسرائيل مع نبيهم، فطلبوا آيات مُعجزة على صحة الرسالة، فأتى بها الرسول.. وبذلك يُفترض أن تنتهي القضية ! ولكن فساد القوم حال دون الهداية.. وبدأت المعركة..

إن الرسول أصبح "ساحراً" في نظر الملأ من قوم فرعون.. وخرجنا عن القضية الأصلية قضية التوحيد والإيمان إلى قضية "التآمر" بإخراج فرعون وقومه من أرضه ! والزعم بمحاولة قلب نظام الحكم الصالح، وهدم الدولة!! التهمة المتكررة في كل نظام فاسد ضد المصلحين !! ونرى هنا "احتراف" الجاهلية في كل زمان ومكان التشويش على قضية التوحيد.. ومحاولة صرفها إلى قضايا فرعية أخرى لخداع الجماهير.. فقد أصبحت القضية في نظر الجماهير الآن: "ساحر يتآمر على دولة فرعون من أجل متاع الدنيا، ووراثة ملكه" بعد أن كانت التحرر من فرعون العبد المخلوق، والاستسلام لله رب العالمين رب الأرض والسموات.. واتباع الرسول المُرسل من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونلحظ هنا مسألة الاتحاد والمشاركة في قوله: "فماذا تأمرون ؟" وإن الملأ في كل وضع جاهلي ظالم في حالة دائمة من الصراع على النفوذ، وعلى المال، وفي حالة من التحاسد والتباغض، والوشاية ببعضهم البعض.. إلا إنه عند إحساس الخطر الذي يتهددهم جميعاً نرى "الاتحاد والتوافق" ويبدو أن الملأ قد أدرك خطورة دعوة التوحيد على مصالحهم المادية.. فأجمعوا أمرهم وشركائهم.

وبدأ الجد والجهد من الملأ ليرسلوا في المدن؛ يجمعوا "كل" ساحر عليم.. و"كل" تفيد الإحاطة والتفتيش عن كل ساحر، ولا بد أن يكون عليماً ليواجه خصمهم هذا، فهي بالنسبة لهم "معركة وجود".. وهكذا الجاهلية في كل زمان ومكان يغشها الفساد والإفساد والظلم، حتى إذا جاءت المعركة مع التوحيد وأهله، جمعوا (كل) الخبرات والتخصصات لمواجهتهم !

ولما جاء العلماء من السحرة.. كانوا على دين القوم، دين المصلحة الآنية، فلم تكن قضيتهم في تلك اللحظة، اتباع الحق، والبحث عن الدليل، بل نيل الأجر عند الغلبة، وأخبرهم فرعون بالأجر والقربة منه، وماذا يملك الفرعون سوى دراهم معدودة ستزول حتماً بعد حين، ولكنه الشيطان عندما يسول للنفس أن هذه الثوان المعدودة هي كل الحياة، وهي غاية الوجود.

وبدأت المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – وهو في ظنهم ساحر ! – مع العلماء من السحرة، وهو يوم الزينة، يوم عيد لهم – كما جاء في سورة طه – وأرادوا منهم إبطال دعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإفساد رسالته أمام جميع الناس.. ولما بدأ السحرة عملهم.. سحروا أعين الناس، وجاءوا بسحر عظيم، ولنا أن نتخيل وصف القرآن الكريم لهذا السحر بـ "العظيم" كيف كان؟ وماذا فعل؟ حتى أوجس موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نفسه خيفة: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ [طه (67)] وهو من أولي العزم من الرسل!

ويحضرنا هنا سحر طواغيت هذا العصر، وهم يسحرون أعين الناس من خلال إعلامهم وقنواتهم، وفنون الاتصال والإعلام الحديثة، لتجتمع جاهلية الماضي، مع جاهلية الحاضر في اغتصاب عقول الجماهير، وفي استلاب وعيهم؛ ليمضوا في عبوديتهم للطواغيت دون اعتراض أو امتعاض بل بحب وإحسان !

ثم جاءت جولة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لتمحق هذا الباطل الذي انتفش في حركة واحدة تبتلع كل عظمة وعلم توصل إليه هؤلاء السحرة وأتباعهم وكبرائهم.. فيعلو الحق، ويبطل الباطل، فانتصار الحق سنة إلهية، قدّرها الله في هذه الحياة، وانتصار الإيمان والرسول والمؤمنين معهم سنة ماضية إلى يوم القيامة.. لا تتخلف إلا عندما تتخلف حقيقة الإيمان، أو حقيقة اتخاذ سنن النصر والتمكين.

وحل الصَغار والهزيمة الظاهرة بالملأ وبفرعون، بعد أن حل بهم الصغار والهزيمة المعنوية يوم اتهموه بأنه ساحر ! وسيحل بكل من استكبر وعاند وكفر وعاد دين الله ورسالته ورسله والمؤمنين.. كما قَالَ الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران (12)].

| | |

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ووقع ما لم يكن في الحسبان.. "إيمان السحرة" في يوم الزينة.. يوم اجتماع الناس، وانقلب الأمر على الملأ وعلى فرعون، ورغم ما بذلوه من جهد وكيد للإيقاع بدعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورغم ما جمعوه من العلماء من السحرة.. جعل الله كيدهم في ضلال، وتؤكد الآيات في سورة غافر مرتين ضلال تخطيط فرعون ومكره، وخسارته في النهاية، فقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر (25)]. وقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر (37)]. وفي سور يونس: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس (81)].

ولكن كيف تم هذا التحول المفاجئ للسحرة؟! كيف من لحظات كانوا يطلبون الأجر والقربة من فرعون، ثم في اللحظة التالية يسجدون لله رب العالمين، ويؤمنون برسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؟!!

إنها "ثورة الإيمان" في القلوب.. واستعدادها لقبول الحق عند لقائه، وتواضعها أمام الحقيقة عندما تسطع أمامها.. وهذا هو المطلوب من الإنسان، وأما الحالة الأخرى التي تحول بينهم وبين الإيمان،

هي: عدم الاستعداد ابتداء لقبول الحق؛ لفساد قلوبهم وعقولهم وفطرهم، ورد الحق ليس لأنه الحق، ولكن لأنه لا يوافق أهوائهم أو يصطدم بمصالحهم وأوضاعهم المستقرة – في نظرهم – كما يأتي الكبر ليطبع على القلوب، ويغلقها.. ولو فُتحت لها أبواب السماء ما آمنت !!

ولا تشير الآيات إلى إيمان أحد غير السحرة ! رغم أنه يوم عيد واجتماع للناس.. ولعل سبب ذلك هو اختلاف أحوال القلوب والعقول بين العلماء من السحرة، وبين جماهير الرعاع.. التي لا تبحث عن الدليل والحُجة والبيّنة، إنما تنظر إلى يد الجلاد أتهوي عليها أم تُمنيها وتغدق عليها ؟!

وإعلان السحرة لربوبية رب العالمين الحقة – صاحب الخلق والأمر، وأهل الخضوع والذلة والعبودية، وأهل الطاعة والعبادة – يُبطل دعوة فرعون ونظامه من أساسها فثارت ثورته:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ويتعجب فرعون.. كيف للسحرة أن تؤمن هكذا دون "إذنه" ؟!

ولعل فرعون هنا يريد أن يُعيد شيئاً من ربوبيته المدعاة والمهدرة أمام الإيمان المفاجئ للسحرة.. فلا يتكلم عن سبب وحقيقة الإيمان ونوعه، إنما يتكلم عن "المبدأ" ابتداء.. وهو أخذ الإذن منه ! فلربما لا يجد فرعون مانعاً إن أخذ السحرة الإذن منه بالإيمان بالله، طالما أنهم لن يخرجوا عن نظامه وأوامره ! ولكن كيف يكون هذا الإيمان ؟!

وإن الجاهلية المعاصرة تحاول هذا مع الإسلام، وتريده خادماً لأوضاعها.. وتريد من الإسلام أن يأخذ الإذن من "العلمانية الوجودية الإباحية اللادينية" تريد من المؤمنين أن يستأذنوا قبل أن يمارسوا دينهم، فتسمح لهم العلمانية بالشعائر دون الشرائع، ثم تسخر من الشعائر وتحاربها، بالحرب المباشرة بقتل وسجن وسحق أولياء الله، والحرب الغير مباشرة بنشر الفجور والزنا والانحلال والإباحية في كل شيء.

وتحاول العلمانية محاولة أخرى عندما يهب المسلمون نصرة لشرع ربهم، فتقول لهم: لا بد من رأي الأغلبية.. ولا بد من الإذن لإقامة الدين، وتحكيم الشرع، وربطته بالأهواء والآراء؛ حتى تكون العلمانية هي صاحبة الإذن، وتكون لها الربوبية على الخلق !

لكنها حلاوة الإيمان تفجرت في قلوب السحرة محطمة قوة فرعون، وبأس جنده، وأسوار الجاهلية؛ لتُسكب في القلوب المؤمنة لذة الإيمان بالله جَلَّجَلَالُهُ.. والشوق إليه؛ فتخلّصت من وهم فرعون الذي حولهم – في لحظة من اللحظات – إلى عبيد له وللشيطان، فكانت لحظة التحرر الكبرى التي لا تقف أمامها قوة فرعون مهما كانت.

وتعود معركة "الدعاية الكاذبة" مرة ثانية، وتحويل القضية الأصلية؛ لخداع الجماهير، ونلحظ هنا استراتيجية التكرار للتعميم.. ففي الآيات السابقة قال الملأ: إنها مؤامرة على الملك والسلطان ووراثة أرض فرعون، وهنا تكرار لهذه المؤامرة.. ولكن هذه المرة بإلحاق وصف "أهلها" أي ربط القضية أكثر بالجماهير، وجعل القضية مؤامرة على الشعب لإخراجه من أرضه، ولعل هذه السرعة في الدعاية الكاذبة لتمتص ما حدث من "ثورة الإيمان" في قلوب السحرة؛ ولتقطع الطريق على الجماهير أن تتأثر بهذه "الثورة"، والجماهير كثيراً ما يكون لديها استعداداً لسماع الكذب، وقبول الخداع، والاستمتاع بالاغتصاب الفكري والعقلي، فتأتي هذه الدعاية الكاذبة ثمارها الخبيثة، وتحول الجماهير إلى وقود في معركة فرعون، ثم يخسرون جميعاً في النهاية.

وأصبحت قضية السحرة وثورة إيمانهم مجرد مكر ومؤامرة تستحق العقاب الشديد..

فأعمل الفرعون آلة القتل والتعذيب – وماذا يملك الفراعنة والطغاة غيرها؟ – إنه ليس له سلطان على القلوب والأرواح المؤمنة، كل ما يملكه هو إرهاب الجسد الفاني، في لحظات وثوان معدودة، ثم تكون على الفرعون وبالاً وعذاباً وظلمات في الدنيا والآخرة.

وتتكشف حلاوة الإيمان في قلوب المؤمنين من السحرة، وهي يُرجعون أمرهم ويوكلون مصيرهم إلى الله، ويُبطلون الدعاية الكاذبة، وإفك القول بالمؤامرات.. ويرجعون القضية إلى أصلها وهي

الإيمان بالله وحده لا شريك له من فراعنة ولا من طواغيت، لا شريك له في ربوبيته على خلقه، ولا طاعة ولا عبودية لأحد سواه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ولا بقاء لهذا الإيمان إلا بأن يثبت الله قلوبهم على هذا الإيمان فلا يتزعزع ولا يضطرب.. بعد أن يكون الله ألهمهم الصبر واليقين في لقاءه ووعده.

وهنا نسجل "انتصار" المؤمنين من السحرة، وتحررهم من أغلال فرعون وآصاره على القلوب والأرواح.. هذه الحرية العظيمة، وهذا النصر الخالد الذي سجله القرآن الكريم، يكشف لنا معنى انتصار الإيمان على الطغيان، والروح على المادة.. وإن فنت أجسادهم وتقطعت، وعجزوا عن تحرير أجسادهم من أغلال فرعون، فذلك لأن الله لم يكتب لهم التمكين المادي بعد، ولكن التمكين الروحي قد وقع بالفعل.. فيكفيهم سعادة وفلاح ونجاة وخير أن يرجعوا إلى ربهم وقد رضي عنهم فذلك هو الفوز العظيم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران (185)].

| | |

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وعودة مرة أخرى للملأ، وهم يستشعرون هذه المرة مدى الخطورة التي أصابت أوضاعهم بعد إيمان السحرة.. ولا يملكون سوى "الدعاية الكاذبة" و"معركة استلاب الوعي" ونلحظ أن مهمة الملأ تحريك قضية "الدعاية والوعي" ومهمة فرعون "البطش".. ونلحظ مدى خطورة استلاب الوعي، فالبطش قد يزيد الناس تمسكاً بقضيتهم، ويُورثها لغيرهم، أما الدعاية الكاذبة واستلاب الوعي فهي المعركة الناعمة التي من يستجيب لها يَهلك دون بطش أو كبير جهد من فرعون.

والملأ هنا يحاولون شحن الفرعون – المشحون أصلاً بالكبر والكفر والطغيان – ولكنهم يدافعون عن وجودهم الذي بات يتهدده الخطر.. ولا عجب أن يتحدث الملأ عن قضية "الإفساد في الأرض" التي سيصنعها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، ولا عجب والآية السابقة تتحدث عن "وحشية" فرعون

وهو يقطع الأيدي والأرجل ويصلب لمجرد الإيمان واستسلام القلوب لله رب العالمين، كل هذا ليس بـ "فساد"! وتُصدق الجماهير الدعاية.. إنها ليس قضية إيمان، ولا استسلام لله رب العالمين، إنها – في نظرهم – قضية متاع وثورة على النظام الحاكم، ووراثة للمُلك، ثم في النهاية إنها "قضية إفساد في الأرض" يتجشم فرعون عناء مواجهة هذا الفساد !!

وسبحان الله.. إنه نفس أسلوب الجاهلية المعاصرة – عندما تقف الفئة المؤمنة الموحدة، تكشف حقيقة الظلم والبغي والعدوان، وترد دين الطاغوتية الذي يجتاح الأرض الآن – تقول عن المؤمنين جاءوا ليفسدوا في الأرض، رغم حجم الدمار الهائل الذي تُحدثه الجاهلية العلمانية في كل الأرض، إلا أن المغفلين من الجماهير تصدق هذه الدعاية، وتقف بجانب الفراعنة والطواغيت تحارب المؤمنين !

ويُخوّف الملأ فرعون من خطورة دعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإن دعوته فيها ترك لنظامه ودستوره وأحكامه.. ولعل هذا ما قصدوه بالإفساد في الأرض، فكان في نظرهم ترك عبودية البشر! أما القتل والإبادة والصلب فليس بإفساد في الأرض، إنما ضرورة للحفاظ على النظام، الإفساد في الأرض – في نظرهم – هو قلب نظام الحكم الظالم الفاسد، وهكذا تقول الجاهلية في كل زمان ومكان.

| | |

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّـهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّـهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

ومع حملة الدعاية الكاذبة واستلاب الوعي التي قام بها الملأ، وحملة الإرهاب الوحشي التي قام بها الفرعون وجنده.. يحاول النبي الكريم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تثبيت الإيمان في القلوب أمام أشد معركتين على الجماهير والأتباع وهي إرهاب العقول والقلوب والأرواح بالدعاية الكاذبة، وإرهاب الأجساد بالقتل والتعذيب، وفي كل هذا يرد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأمر كله لله، ويطلب منهم حسن التوكل على الله، والاستعانة به، واللجوء إليه، والصبر على البلاء، ويضعهم أمام الحقيقة الكبرى والسنة الإلهية

التي لا تتخلف ولا تتبدل وهي: "العاقبة للمتقين" في الدنيا والآخرة، وإن المؤمن إما في "انتصار" أو "تمكين" انتصار: الإيمان على الطغيان، والنجاة والفوز بالآخرة حتى ولو لم يتم التمكين المادي، أو يأتي التمكين المادي: بعد اكتمال أسبابه، وتحقيق سننه.. فتكون العاقبة للمتقين – في كل الأحوال – الذي يتقون الله، ويتبعون رضوانه، ويمجدون ويقدسون أمره ونهيه.

وإن وراثة الأرض أمر هين يسير على الله: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْـًٔا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس (82)]. والأرض هي خلق الله، وهي مِن ملكه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق كل شيء، ومالك كل شيء، هو الذي يُورثها من يشاء من عباده.. فاشغلوا أنفسكم – أيها العباد – بصلاح قلوبكم وأعمالكم.. والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

ولكن يأتيه الجواب؛ ليكشف في توقيت مبكر عن "انحراف" في بعض نفوس بني إسرائيل، وانطباع آثار من الاستبداد والطغيان والفرعونية فيها؛ ليكون الجواب إساءة أدب بالغة مع نبيهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويكشف كذلك عن الصورة المادية الجافة القاسية المقيتة التي يَزنون بها الأمور والأشياء، ويكشف عن فساد في قيمهم وتصوراتهم.. فيساوون بين حالهم قبل مجيء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبعد مجيئه، ويختزلون القضية كلها في مسألة "الأذى" الذي يتعرضون له !

وهنا تنعقد المقارنة بين حال المؤمنين من السحرة – وهم كانوا أصحاب مكانة في قومهم – وبين حال النفوس المنحرفة من بني إسرائيل.. ونجد انطلاقة الحرية في نفوس المؤمنين من السحرة وهم يقولون: ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء (50)]. ويستشعرون حلاوة الإيمان، وقربهم من الله.. وبين حال النفوس المنحرفة وهي تتطاول على نبيها وتقول: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾.. كأن تلك النفوس كان تريد طريقة سحرية غامضة الأسباب أو مجردة عن بذل الجهد واستفراغ الوسع لتُخلصهم مما هم فيه ! وكأن تلك النفوس لا طاقة لها بمشقة وتكاليف التغيير ! ولا تريد المضي في سنن الله، تريد نصراً بلا جهاد، تريد قائداً يخوض المعركة وحده !

ويتكرر هذا المشهد في معارك التغيير والمواجهة مع الأنظمة الفاسدة.. تصبر الجماهير على فساد الأنظمة، ولا تصبر على معركة التغيير! وتساوي بين حالها تحت الأنظمة الفاسدة، وبين حالها بعد

بداية المعركة، لا تشاهد غير "الأذى" ولا تصبر عليه، ولا تريد تحمل تكاليف المعركة، فتحن إلى الذل.. وضريبة الذل أفدح بكثير من ضريبة الحرية !

ويصبر عليهم النبي الكريم - فهو من أولي العزم من الرسل - ويكشف لهم عن المستقبل، ويحذرهم من عاقبة السوء.. ويخبرهم أن هلاك عدوهم في يد الله، وهو قريب.. وليست هذه القضية الأصلية، وليس في عذاب فرعون الواقع عليهم سوى أذى زائل ولو بعد حين.. إنما الخوف والوجل الحقيقي هو في خلافتهم لفرعون.. بعد أن يُهلكه الله، ثم ينظر الله ماذا سيصنعون؟ وماذا سيفعلون؟ وهذا هو الابتلاء الحقيقي الأشد من الابتلاء بفرعون !

ولكم حصل للمسلمين مثل هذا الموقف: أن يقع عليهم العذاب صنوفاً وألواناً من الطواغيت، فيصبرون ويحتسبون، ثم يُهلك الله عدوهم ويستخلفهم - إلى حين - فيقعون في المحذور، فلا للدين انتصروا، ولا للشرع أقاموا، ولا لحمل الرسالة جاهدوا.

| | |

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّـهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

ومن رحمة الله بخلقه الابتلاء بالحسنات والسيئات لعل أحد أن يتذكر ويرجع.. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء (35)]. فسنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في

الابتلاء هي: الابتلاء بالشدة والعذاب، والابتلاء بالخيرات والحسنات.. وكل ذلك لعلهم يتذكرون، لعلهم يرجعون.

ولكن السفهاء الأشقياء يُفسرون الحسنات والخيرات أنها محض علمهم وجهدهم وليس هو فضل الله ومنته، فيكون الكفر في موطن الشكر؛ فتزول النعمة، وتأتي النقمة.. فإن أتت النقمة لا يُقرون بذنبهم، ولا بجهلهم، إنما يلقون التهم السخيفة على غيرهم، وكل ذلك سببه الكبر الذي استقر في صدورهم؛ فأعماهم عن رؤية الحقيقة، فصاروا مهما بلغوا من علم دنيوي جهلاء لا يعلمون حقيقة كفرهم، وما تطويه نفوسهم من انحراف وجهل واستكبار.

وصدقوا عندما قالوا: ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، فمازالوا رغم كل هذه الآيات البيّنات، ورغم إيمان العلماء من السحرة – أهل الصنعة والفن – يفسرون دعوة التوحيد، وآيات النبي الكريم بأنها "سحر" لن يؤمنوا له ولدعوته مهما فعل، كأن القوم مستمسكون بالصراط المستقيم لا يحيدون عنه !! وإنما هو كبر في صدورهم جعلهم يجحدون الحق ودعوته، وهم به في قرارة أنفسهم مستيقنون به: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النّمل (14)]. فكانت حقيقة نفوسهم هي: الكبر والظلم والعلو في الأرض بغير الحق.

ولما وقع عليهم العذاب تلو العذاب.. دعوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما حل بهم، وإذا رُفع العذاب سيؤمنون له، وسيرسلون معه بني إسرائيل ! إذن أين: (السحر، والمكر، والإفساد في الأرض) الذي حركته الدعاية الكاذبة لملأ فرعون.. وما بالهم يتألمون من هذا العذاب، ولا يتألمون من الكفر وأمراض القلوب التي إن ظلوا عليها ستهلكهم جميعاً ؟!

وأين الجماهير التي كانت تشاهد هذه المعركة الدائرة في العقول والقلوب؟ ولكن هذا هو الحال عندما تُسلّم الجماهير نفسها ليقودها الفراعنة والطواغيت كالسائمة.. لا تدري أين تذهب؟ وماذا اختارت؟ وإلى أي طريق تسير ؟!

ثم.. رحمة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وزيادة في الآيات البيّنات، يكشف عنهم الرجز والعذاب كما طلبوا، فإذا هم ينكثون عهدهم ويعودون كما كانوا.. وكانت هذه هي الجولة الأخيرة فحق عليهم عذاب الاستئصال، فأغرقهم الله جميعاً في البحر، وذهبت زينة فرعون، وما صنعه، ذهبت الزروع والجنان المسورة، والأنهار الجارية.

وكان السبب: التكذيب والغفلة..

وهما من أسباب هلاك الأمم وخسرانها سواء في الدنيا أو الآخرة: التكذيب لا لشيء سوى (الكبر والظلم والعلو في الأرض بغير الحق). والغفلة (حيث الاستسلام لعملية استلاب الوعي، واغتصاب العقول، واستسلام القلب للعبودية لغير الله، واحتقار الإنسان لنفسه، والسير خلف ملأ الفراعنة والطواغيت).

وتنقلب الصورة.. فالفراعنة والطواغيت هم لا شيء، هم ضعفاء عند الله، وكذلك يجب أن يكونوا في حس المؤمنين كذلك، والمستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها هم أقوياء بالإيمان بالله، وكذلك يجب أن يكونوا في حس المؤمنين كذلك.. فليس هناك من أحد ولا مخلوق خارج عن قدرة الله ومشيئته، وهو وحده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القوى الوحيدة المتحكمة في هذا الوجود..

وما مظاهر القوة والضعف التي تظهر على خلقه حيناً من الدهر.. إنما هو فقط "ابتلاء" إلى حين، ثم يُداول الله الأيام بين الناس: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران (140)]. ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران (185)]. والقضية في أصل مبتداها ومنتهاها هي: الإيمان والاستسلام لله رب العالمين، وهذا الإيمان هو الفوز العظيم.

***



يقول الله تعالى في سورة يونس:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

استعرضت الآيات بعض الدروس الهامة، ومنها: (بيان مرض فرعون وجرمه- نظرة الطغاة لدعوة الحق – سنة الله في إبطال عمل المفسدين – إيمان الشباب بدعوة الحق – حسن التوكل على

الله والإخلاص له – التربية الإيمانية الروحية، واعتزال المفسدين – إجابة الله لدعاء عباده – بطلان ادعاء الإيمان عند لحظة الهلاك).

فبدأت الآيات بتوضيح الصورة العامة التي سبق تفصيلها - في سورة الأعراف – بتكذيب فرعون وملئه، بسبب استكبارهم وجرمهم، وأضافت الآيات وصم الإجرام لقوم فرعون، مع وصم الفسق المذكور في سور أخرى.. فالفسق في الروح والأخلاق، والإجرام في السلوك والمعاملة.. ولا شك أن هذا كان حال جند فرعون.. يد الإجرام الباطشة، وحال الجماهير الغافلة التي تقدس الطغيان والظلم وتعتبره حقاً مشروعاً حلالاً لها.

ثم ردوا دعوة الحق بالتهم السخيفة الساقطة بإداء السحر، وإضلالهم عن دين آبائهم.. وهنا إضافة جديدة، هي سبب التكذيب والإجرام، وإتهام الرسول بالسحر، وادعائهم الحفاظ على دين آبائهم، وهي:

﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

هذه هي قضية الفرعون الأصلية والملأ من حوله: "المُلك والعلو والكبرياء" في الأرض.. فإن تهدد شيء هذا الملك والكبرياء، راحوا يحاربونه بكل وسيلة، القضية هي "عبودية" المُلك والمتاع والسلطان، ولو كان موسى – وحاشاه عَلَيْهِ السَّلَامُ – ساحراً، ما ضرهم ذلك من شيء، فهم أهل السحر، وتفاخر فرعون بالسحر من قبل فقال: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه (71)]. فبمنطقهم السحر ليس تهمة، بل مفخرة !

واتباع دين الآباء، قضية فرعية، فلو دين الآباء – افتراضاً – يأمرهم بترك الملك والالتفات للآخرة؛ لكفروا بدين الآباء، بل وقتلوهم.

إنما القضية هي قضية "المُلك والسلطان"، وهي من أقوى الشهوات في النفس الإنسانية، وهي الشهوة التي أخرجت آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنة؛ عندما وسوس له الشيطان فقال له: ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾ [طه (120)]. والغفلة عن ضبط هذه الشهوة تُهلك الإنسان،

وتجعله يستحل كل شيء في سبيل المُلك والسلطان، رغم أنه كله في النهاية زائل، وإلى الله الرجعى، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم (42)].

ولقد فشل فرعون في قراءة رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فظنها صراعاً على المُلك والسلطان.. وندرك هنا أهمية الرسالة، وخطورة قراءتها قراءة خاطئة، أو الفشل في فهمها.. فلا يتبع الإنسان الظن، وما تهوى الأنفس، ولا يفهم بأحكام مُسبقة، ولا يغلق عقله عن الفهم قبل أن يقرأ، أو يُكذب قبل أن يعرف، ويترك مساحة للمراجعة، ويطلب من الله الهداية والراشد، فالأمر جد لا هزل فيه، فإما سعادة في الدنيا، وفوز وجنة في الآخرة، وإما شقاء في الدنيا، وخسران وعذاب في الآخرة، وليس ثمة خيارات أخرى، وأمر بهذا الجد لا بد أن يأخذ حجمه واهتمامه ومكانته في عقل وقلب كل إنسان.

| | |

ثم جاء موقف السحرة – يوم الزنية – هنا إجمالاً – إذ سبق تفصيله في آيات أخرى – ويضيف هنا:

﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّـهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

إنه ليس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعصاه، إنما هي إرادة الله، وقدرة الله، ومشيئة الله، هي التي ستبطل السحر، وهنا يخرج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، فهو يُبطل دعواهم واتهامهم له بأنه ساحر، ويرد الأمر لله، قبل أن ينتصر عليهم وبعده، ولأن "سنة الله" جَلَّ جَلَالُهُ في كونه: "لا يُصلح عمل المفسدين"، فهو فساد لن يمكث في الأرض، ولن يباركه، وسيكون وبالاً على صاحبه..

ولقد يغتر المسلم ويهتز عندما يرى عمل المفسدين ينتفش إلى حين، أو يُزينه الشيطان في قلوب الناس، فيتساءلون: لماذا عمل المفسدين عظيم وكبير ؟!

وهذه النوعية من الأسئلة وغيرها، تقع في قلب الإنسان عندما تتضخم في حسه اللحظة الآنية الحاضرة، ويرى الحلقة الأولى من حلقات القدر، فيُخيل إليه أنها هي كل القدر، أو أن الله – تعالى علواً كبيراً – يُصلح عمل المفسدين! وإنما هي الحلقة الأولى والإمهال من الله: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد (32)]. ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف (183)]. قبل أن يأتيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ثم يستخلف الله غيرهم، فينظر كيف يعملون؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام (165)].

وفي إمهال الله للمفسدين كذلك عدل الله وحكمته أن يُمتعهم إلى حين إن أخذوا بأسباب القوة والتمكين، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام (44)]. وإن قصروا عن الأخذ بأسباب القوة والحضارة، كان هلكتهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف (165)].

فيجب على المسلم أن ينظر إلى الحياة والقدر في صورة كاملة متصلة ممتدة في الدنيا وفي الآخرة.. ويتحرى موطن الإيمان والسكينة والطمأنينة والرضى في الدنيا، والجنة والنجاة في الآخرة، فهذا هو الفلاح وغيره هو عمل المفسدين، ولا يَقس أبداً تصوراته العقلية إلى قدر الله، ويحكم على قدر الله وفقاً لتصوراته العقلية المحدودة بحدود الزمان والمكان واللغة البشرية.. والتي تظل أبداً قاصرة ظالمة جاهلة إلا أن يُنورها الله بنوره.. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النّور (40)].

| | |

﴿ وَيُحِقُّ اللَّـهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فالحق له الجولة الأخيرة وله النصر التام، ولو كره المجرمون، فسنن الله ماضية، ولن تجد لسنته تبديلاً ولا تحويلاً.

| | |

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

بعد كل الآيات المعجزات، لم يؤمن لموسى إلا الشباب من قومه، وهم على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنوهم بالبطش والعذاب، أو الإغراء والمتاع، أو المكر والخداع، ففرعون مستكبر في الأرض ومُستعلٍ فيها بغير حق، وإنه من المسرفين في البطش والعذاب، والإغراء والمتاع..

والشباب هم حملة الدعوة والرسالة في كل جيل، وهم الذين لديهم الاستعداد للتغير، والتغيير، وهم الذين لم تتكلّس عقولهم وتتحجر قلوبهم على تصور أو وضع، بل لديهم الرغبة في الانطلاقة والحماسة في تغيير وجه الحياة نحو الأفضل، وعدم الاستسلام للباطل وأهله.

ويجب على الدعاة في كل جيل، الاهتمام بالشباب وتوظيف حماسته التوظيف الراشد الصحيح، دون رعونة تقيد معنوياتهم، أو تكبت طاقاتهم، أو يدفعونهم إلى مواجهة عبثية يكونون فيها وقوداً يذهب سدى، فهم أمانة كبرى يجب الحساب لها ألف حساب.

وتُهمل الآيات ذكر الشيوخ من بني إسرائيل، وتهمل جماهير وشعب فرعون.

وهذا التخوف من الشباب من فتنة فرعون، هي صورة من الوعي والوجل، الوعي بفتنة فرعون سواء بالقهر والقتل أو بالسخاء والعطاء، فهو مستكبر في الأرض بغير الحق، وهو مسرف في استكباره وطغيانه.

والشباب هم الأقرب إلى الدعوة والاستجابة، فلم تنغلق عقولهم بعد، ولم تترهل نفوسهم، ولم تشخ فطرتهم، ولم تمت أرواحهم، فالاستجابة منهم أقرب، والعزم منهم أشد.. وهم الطاقة والقوة التي تحمل الرسالة.

ولذا يحاول الفراعنة والطغاة إفساد الشباب من كل طريق، وفرعون اتبع استراتيجية "الإبادة والقهر" لهم قبل أن يترعرعوا - "نقتل أبناءهم ونستحي نساءهم" - ولربما ترك البعض للخدمة والسُخرة، ولكن قدر الله نافذ، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه؛ فكان لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذرية آمنت وصدّقت..

وأما محاولات الفراعنة والطغاة اليوم فهي أشد من القتل والإبادة التي تحفز النفوس، وتأجج القلوب للرد والثأر ولو بعد حين.. اليوم يُفسد الفراعنة والطواغيت الشباب بإطلاق سعار الجنس

في كل مكان، وإشعال نيران الشهوات من كل طريق، ومتى انزلق الشباب لهذه المستنقع النجس؛ فتر عزمه، وقلّت قوته، وضاعت مروءته، وعجز عن الاستجابة، والنهوض بالتكاليف، والهمة في الجهاد، وهذا الإفساد ليس مجرد محاولة هنا أو هناك، بل صورة ممنهجة دقيقة لا تدع الشباب – إلا من رحم ربي – إلا وقد غرق، ولا عاصم لهم إلا الله، ثم يفسدوهم مرة ثانية إما بالفقر المدقع، أو الثراء الفاحش، وكلاهما مُفسد للإنسان.. فالفقر يُولد الكفر، والثراء الفاحش يُولد الطغيان، أو يتركونهم في العمل المذل من أجل لقمة صغيرة للعيش، ثم لا يدعونهم إلا وقد أفسدوا عقولهم وفكرهم وتصوراتهم بزبالات الفكر البشري... إلخ.

فلما تأتي دعوة الحق، لا تجد همة الشباب، وعزيمة الرجال، بل ترى نفوساً مقهورة مهزومة تائهة ضائعة شريدة حزينة ! وتكمن هنا أهمية التربية من أجل الحفاظ على هؤلاء الشباب، ومن أجل حفظ طاقاتهم، وقطع الطريق على الفراعنة والطواغيت أن يبددوا طاقاتهم، ويسرقوا عقولهم.. واستكمال المسير الذي لا يتوقف من أجل خروج الجيل الذي يحمل الرسالة، وهو مدرك لكافة أبعدها، ومستبيناً لسبل المجرمين، وعارفاً بأساليب الفراعنة والطواغيت، ومستعداً لمواجهتهم، ولحمل الرسالة من جديد.

| | |

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّـهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّـهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

فحقيقة الإيمان هي صدق التوكل على الله، والاستسلام له.. والتوكل الصادق على الله هو اطمئنان القلب التام لقدر الله، وما عنده من الحسنى، وهذا الاطمئنان هو حائط الصد أمام فتنة الفراعنة والطواغيت؛ فتحمي قلب المسلم من الافتتان بالمظاهر المادية الزائلة، وتحميه من السقوط إن جزع القلب، فهذا معنى التوكل في صورته المعنوية، أما في صورته المادية فهو استكمال الأسباب واستفراغ الوسع، وبذل الجهد.

ثم بعد هذا التوكل في صورته المعنوية والمادية، نُرجع الأمر لصاحب الأمر، فهو العاصم، وهو المُنجي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

| | |

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذه الصورة التربوية للذرية من قوم موسى.. هي محاولة للخروج عن نظم وقيم فرعون، فلا شك أنها تُشوش على عقول الشباب، وتقطع عنها التشرب بالرسالة، وفهمها.. فجعلوا بيوتهم ملتقاً وبديلاً عن مؤسسات فرعون؛ لينشأ الجيل الجديد صافياً من كل تأثير، وبعيداً عن لوثة الجاهلية، وإفسادها للعقول والقلوب.. وتدريباً لهم على الاستعداد للرحيل عن مصر، والخروج التام من نظام فرعون.

ووقود ذلك هو: إقامة الصلاة، والاتصال الدائم بالله..

ولا يتعجل أحد الثمرة، فالبشرى والخير والفلاح والنصر للمؤمنين – بإذن الله – فاثبتوا.

| | |

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وفي دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه بيان لقومه حقيقة الصورة المادية المبهرجة لفرعون.. وإن كل هذه الزينة والأموال، زائلة، وقد اغتروا بها، وعلوا من أجلها، وكفروا بدعوة الحق في سبيل الحفاظ عليها، فضلوا عن سبيل الله. وماذا يكسب الإنسان – ولو ملك الأرض كلها – إن ضل عن سبيل الله؟! والإيمان بالله أثقل من ملء الأرض ذهباً.. ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر (47)]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران (91)].

وقد دعى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو موقن بالإجابة، فجاءه الجواب:

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ولا عليك بـ "توقيت" الإجابة، فهذا ليس من شأن المسلم، فلا يستعجلن الإجابة، ولا يستبطأها، إنما هو مُسلم لله جَلَّ جَلَالُهُ، ومن طبيعة الاستسلام عدم القلق، أو تعجل الجواب، وكل ما على المسلم هو "الاستقامة" فهذا ما يجب أن يشغل باله، ويأخذ وقته، فالمسلم يحتاج إلى هداية الله واستقامته في كل لحظة من لحظات حياته ولهذا يردد المسلم دوماً ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة (6)].

وقد يغفل المسلم عن الاستقامة فيحيد قليلا جداً عن الطريق، فقد يستيقظ وقد خرج عن الطريق بالكلية، فقيادة النفس على صراط الله المستقيم كقيادة مركبة بسرعة عالية في دروب مختلفة متعرجة.. تحتاج إلى اليقظة الدائمة، والوجل المستمر، مع الاطمئنان فيما عند الله من الرحمة والمن والود والخير، وهذا هو المجال الذي يجب أن ينشغل فيه العقل، ويحذر أن يتبع سُبلاً أخرى غير سبيل الله وصراطه المستقيم، فالشيطان له قاعد، وبه متربص: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف (16، 17)].

فإجابة الدعوة آتية إن شاء الله، ولينشغل الإنسان بالاستقامة على صراط الله المستقيم.

| | |

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

وتحققت الدعوة، وفي معركة الاستئصال التي أرادها فرعون - بعد معارك الدعاية الكاذبة، والتشويش، والتخويف، والإرهاب، والقتل... إلخ – طلب فرعون المواجهة الكلية؛ لقتل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، وذهب فرعون إلى هلاكه بقدميه، فلما أدركه الغرق آمن !

وهذا الإيمان لا قيمة له ! فلا بد للإيمان أن يكون قبل وقوع العذاب، فهذا ليس بإيمان الصادقين، إنما إيمان اليائسين بعد أن أُحيط بهم ! كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّـهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّـهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر (84، 85]، وليست هذه بتوبة ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء (18)].

عندها لا ينفع الندم، والرجوع: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ. أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ. وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّـهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ. فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّـهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم (44، 47)].

إنه الآن يستسلم عند لحظة الهلاك ! ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل (28، 29)].

وعند لحظة الهلاك لا ينفع إلقاء السلام، ولا الجدال عن النفس.. فقد كان الله يدعوه إلى دار السلام، ولكنه استكبر وأبى !

لقد كان الإيمان والرسول مبذولاً لفرعون، والآيات تلو الآيات، تذكره بالله والدار الآخرة، فاستكبر، وعلا في الأرض بغير الحق، فأعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فرصاً أخرى، فأخذهم بالخير تارة، وبالشر تارة، فطغوا وازدادوا كفراً، فرسبوا في الامتحان، وسقطوا في البلاء، وطويت صفحتهم مصحوبة باللعنات في الدنيا، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

وفي هذا الموقف يتكشف لنا عِظم ما نحن فيه في هذه الحياة، ومعنى وحقيقة البلاء، وندرك الفرصة العظيمة التي نحن فيها، ومازال هناك فرصة للرجوع والتوبة والإنابة: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾[الزمر (54)].

| | |

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ها هو جسد العبد الشقي المخلوق مُلقى بلا حراك - فليس هو ابن الآلهة! كما كانوا يدّعون ويكذبون – وها هو ميت لا شك في موته، وها هو جسده العفن لم يُرفع إلى السماء كما كان يظن عبيد الفرعون! وها هو آية فوق الآيات السابقة لمن بقي من قوم فرعون الذين حسبوه عظيماً وإلهاً فاستعبدهم، وآية لمن ظن أن للبشر المخلوقين حق الربوبية مع الله أو من دونه !

راحت الزينة والأموال والمُلك والمتاع والسلطان والعلو والاستكبار، وبقي جسد عفن بلا روح، والروح ملعونة: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر (46)]. والجسد الميت بلا حراك وزينة، تشمئز النفس من رؤيته، وتنفر من شكله، هذا هو المتبقي من الزينة والأموال والمُلك، وها هو آية ودرس وعبرة لكل فرعون وطاغوت، والشقي من لم يتعظ بفرعون، وسلك نفس مسلكه.. وعبرة للجماهير التي صدّقت واتبعت الفرعون، هذا حاله، وهذا مصير كل فرعون وطاغوت، وإن الملك لله وحده لا شريك له، والربوبية والألوهية خالصة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكم هي الآيات التي يغفل عنها الناس.. كثيرة هي الآيات، وكثيرة هي الناس التي عنها غافلة، ولا بد من اليقظة، ولا بد من الانتباه، ولا بد من إدراك حقيقة البلاء، وطريق النجاة.. والفرصة متاحة، والباب مفتوحاً، فأدركوا أنفسكم قبل فوات الأوان، وانقضاء الأجل.

***



يقول الله تعالى في سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

وفي إجمال سورة هود، ونهاية فرعون.. ترسم الآيات هذا المشهد؛ لتكشف عن خطورة قضية "الاتباع" في أمر الدين، إنها ليست مجرد "مباراة" يلتحق فيها المشاهد بما يشاء من فريق ! بل إنما هي قضية وجود الإنسان، هل سيتبع طريق الإيمان، أم طريق الكفر والطغيان؟! هل سيتبع الرسول أم سيتبع الفرعون ؟ هل سيسلك طريق الخير والرشاد، أم طريق الشر والضلال؟

وعندما تقيس الجماهير قضية "الاتباع" بالزينة والأموال، والملك والسلطان، والقوى المادية الظاهرة، والأمر الواقع، وقوة البأس والبطش، ودين الآباء، وما ألفوه من الماضي، لا شك أن هذه القيم والموازين ستُورد الإنسان المهالك، لأن الرسول عندما يأتي – ومن بعده المصلحون والدعاة – يكون خالياً من كل هذه الزينة والأموال، وقوة البأس والسلطان المادي.. فكل ما يحمله رسالة من رب العالمين إلى المخلوقين.. أن اعبدوا الله وحده لا شريك له في الألوهية ولا في الربوبية، وإذ لم يُغير الإنسان ما بنفسه من قيم وموازين باطلة، سيتصور الرسالة الربانية – كما تصورها فرعون – صراع على المُلك، سحر مبين، أساطير الأولين، فساد في الأرض!... إلخ.

وتتهاون الجماهير في التمحيص، والتدقيق، والتفتيش، والتفكر، والتأمل، فتحسب أن القضية فلسفية، أو جدلية، أو بعيدة عن اهتمام وحياة الجماهير! والوجود الإنساني كله من أجل هذه القضية، ولكن يعمل الفراعنة والطواغيت على تحويل قضية التوحيد والإيمان إلى قضايا فرعية، هامشية؛ لتنصرف عنها عقول الجماهير؛ فتظل في حالة من الخضوع والقهر المستمر للطغاة.

وإذا أخذنا لمحة سريعة عن "النفسية الاجتماعية" التي تدفع الجماهير إلى العبودية لنظام فرعون، وبذل حياتها من أجل حياته هو ! نجد أن الجماهير تخضع إلى ما يسمى "العقل الجمعي" أو عقل النظام والمجتمع، وبالتدريج ينتهي عقلها هي، حتى ولو كان من بين الجماهير النبهاء الأذكياء، ويحصل ذوبان الفرد وذاته في العقل الجمعي والشخصية الاجتماعية؛ فيحصل فقدان الهوية الذاتية للفرد، وفقدان الوعي العقلي..

ومن ثم تتم عملية استبدال للقيم والأخلاق والحق والفطرة، لصالح ما يريده العقل الجمعي، والشخصية الاجتماعية تكون بديلة عن شخصية الفرد وكيانه وتفرده وكرامته ومصيره.. وتبتلع الشخصية الاجتماعية الفرد، وتعيد تشكيله وفق ما تريد، وما يحقق مصالح نظام فرعون، ويتم تعريف الذات الإنسانية – وكرامتها – عن طريق مكانها في الشخصية الاجتماعية، وعن طريق "الدور" الذي تؤديه في نظام فرعون، لا عن طريق قيم الفطرة السوية، وقيم الأخلاق والعدل.. وهؤلاء هم الذين يخونون فطرتهم، ويختانون أنفسهم ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[النساء (107)].

وبدلاً عن تحرير الذات من سجن الشخصية الاجتماعية الفرعونية، نجد الجماهير تتنافس وتتحاسد من أجل الحصول على مكانة بارزة في هذا النظام الاجتماعي ! حتى ولو كانت ضد الحق والعدل المعروف عقلاً وفطرة، يتم ذلك من خلال "التعميم والتشبع" بأفكار الشخصية الاجتماعية، و"التزيين والتحريض" على تحويلها إلى سلوك عملي مباشر، يُشعر الإنسان أنه اختياره الحر ! ومن ثم تشبع المتجمع بها، وقابليته لأنماطها، ثم تقديسها فيما بعد.

ويتم بناء الشخصية الاجتماعية بصورة ذاتية متعصبة أيضاً.. بمعنى: جعل الشخصية الاجتماعية ذات سمات خاصة من حيث نمط العيش والحياة والوظائف، بحيث يتكيف الفرد سريعاً عليها، ويتشرّب القالب والنمط، فلا تفرد عن القطيع، ومن ثم يفقد الفرد إحساسه بالمسؤولية الفردية، ويصبح عبداً لمن يأمره، ولمن يملك – ظاهراً – القوة المادية، ويكون على استعداد لارتكاب أفظع الجرائم، طالما هي مقبولة للشخصية الاجتماعية، وطالما لن يشعر بإحساسه بالمسؤولية تجاهها. فالفرعون استبد بالشخصية الاجتماعية وشكلها تشكيلاً خاصاً به، واحتكر هو الحقيقة والرأي

والعلم والفكر.. كما قال لهم: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر (29)].

وجاء في الحديث الشريف: عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: **"لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا** " [جامع الترمذي/ 2007]

ولعل سبب إيمان سحرة فرعون أنهم كانوا متفرّدين عن الذوبان في الشخصية الاجتماعية، والخضوع للنمط الجماهيري السائد، بل كانوا علماء، ويدركون أحوال مجتمعهم جيداً، الأمر الذي لم يسمح لهم بأن يكونوا هملاً أو مجرد رقماً في قطيع الجماهير، فكانت لهم معاييرهم الخاصة، وقيمهم المتميزة عن شخصية القطيع، وربما هذا ما يفسر – بعد فضل الله عليهم – التحول السريع والمفاجئ لإيمانهم بعد سطوع آية موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، إيمان فوري لا تردد فيه، ولا خجل.

وبينما الجماهير التي حضرت الحادثة كانت عينها على فرعون وسوطه، وما سيقوله لهم العقل الجمعي الذي له يخضون، وبه يقيسون الأمور، كان السحرة يستقبلون تهديد فرعون بكل رضى وتحدٍ، كأنهم أولياء الله الصالحين منذ أمد بعيد ! وقولوا كلمتهم الخالدة: "لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات، ولن نؤثرك على الذي فطرنا" فهنا الشعور بالذات، والإحساس بالمسؤولية، والشعور بالتفرّد، والشعور بالكرامة.. فهم لن يضعوا فرعون في مكانة أعلى من مكانة الآيات البيّنات التي رأها العقل رأي العين، ولن يضعوه كذلك في مكان أعلى من مكان الإله الذي خلقهم.

وتعبيد الإنسان للشخصية الاجتماعية الفرعونية والعقل الجمعي الظالم هو جريمة في حق الإنسانية، بل هو مكر الليل والنهار عندما يتم بناء هذه الشخصية لتنقض على الحق، وتنقلب على الفطرة، وتمسخ الإنسان، وتقلبه لصورة أضل من الأنعام، فيقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن حالهم يوم القيامة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّـهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا

رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ (31، 33)].

فالاتباع إنما هو مرتبط بطبيعة "الأمر" هل هو أمر رشيد؟ أم ظلم وضلال مبين؟ وليس مرتبطاً بالشخص الصادر عنه الأمر.. ففرعون كان عظيم قومه، ومع ذلك كان أمره "ليس برشيد" وطالما ليس برشيد، فمن الرشد عدم اتباع أمر السفهاء الأشقياء الطغاة، وعدم المضي معهم في الضلال والبغي والعدوان، فلكل إنسان حرية وكرامة.. وهو مسؤول وحده – يوم القيامة – عن كل ما صدر عنه، ومن هنا يتبين مدى خطورة استعباد الطغاة للإنسان؛ وسلبه حريته وكرامته، ومسؤوليته.. ويتبين مدى أهمية معركة التحرر من ظلمهم وفسادهم واستبدادهم.

وتتبين خطورة قضية "الاتباع" من خلال مشهد اليوم الآخر.. في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّـهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة (167)].

| | |

وهذا الإجمال في سورة هود – في هذه الحلقة – عندما أراد الله جَلَّجَلَالُهُ إجمال ما تم تفصيله في سور أخرى عن قصة فرعون، جاء الإجمال هنا تحت كلمة واحدة هي قضية "الاتباع" لأنها في الحقيقة تُلخص حلقات الصراع، وتلخص كذلك المصير والجزاء الأخروي.. فيحضر مشهد القيامة وفرعون يتقدم قومه ويوردهم النار، فهو أبئس مكان يُذهبهم إليه، وذلك هو الخسران المبين.. فهذه نهاية الطريق الذي سلكوه، ويربط المشهد الدنيا بالآخرة، فهم في هذه الدنيا أيضاً في لعنة بئيسة.. فجمعوا بين خسران الدنيا، والآخرة، ولعنة الدنيا، ولعنة الآخرة:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

***



يقول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

وفي هذه الآيات إجمال للتفصيل السابق لآيات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واتهام فرعون له بأنه ساحر، ولكن هنا اتهام جديد لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو أنه "مسحوراً" مخدوعاً مغلوباً على أمره ! وقضية "الاتهام" عموماً هي قضية خروج عن القضية الأصلية، ومحاولة "شخصنة" الدعوة، ورسالة الله إلى خلقه، واختزالها في "حاملها" ثم اتهام حاملها بلائحة الاتهام المناسبة لكل عصر، فإن كان السحر والعمل به هو الشائع في بيئة فرعون، فهذه التهمة قد لا تكون مناسبة للدعاة في عصور أخرى، فنجد عند القيام بدعوة التوحيد، ورد الأمر كله لله، والدعوة إلى شرعه ودينه، نرى تهماً مثل: الإرهاب، التطرف، التكفير، قلب نظام الحكم، مؤامرة خارجية، التقليب في ماضي الداعية وهدم شخصيته المعنوية... إلخ من محاولة حصر القضية الكلية، ثم كيل الاتهامات؛ لينصرف الناس عنها، ويصرفوا أبصارهم نحو التهم، والتشويش على عقول الجماهير بكثير من القضايا والأمور الفرعية والتفصيلية، ومع استخدام فنون الدعاية والتأثير يصبح المكر عظيماً، ولا عاصم له إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي حوار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون.. نرى المفاصلة التامة، والتحدي الكبير، ونرى الإيمان الأعزل إلا من معية الله، والفرعون الباطش في أوج قوته، ليقدم موسى صورة واضحة من المواجهة والإصرار على البيان.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

فلما جاء دور موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرد، أوضح أن هذه الآيات التسع المعجزات، هي من عند الله، وفرعون يعلم يقيناً أنها من عند الله، من عند رب السموات والأرض، ورب فرعون.. والتأكيد هنا على "ربوبية" رب السموات والأرض، وأن هذا الرب الأحق بالعبادة والخضوع والذلة والطاعة والانقياد، فهذه أرضه، وتلك سماؤه، فأنى عن عبادته وطاعته يُصرفون ؟!

ورد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الاتهام بأنه "مسحورا" بوصف فرعون بأنه "مثبورا" بأنه هالك ملعون خاسر مُعرض عن الخير الذي جاءه، وفي هذا الموقف لم يتلطف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القول كما كان في بدء الأمر: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه (43، 44)] فهذا موقف الدعوة الذي يبدأ باللين والنصح، وبذل المعروف والخير، وبيان التجرد والإخلاص التام للدعوة، فهي رسالة نجاة للإنسان قبل كل شيء..

أما في موقف التحدي والمواجهة، فلابد للإيمان - وإن كان أعزلاً من كل قوة مادية - أن يقف عزيزاً شامخاً، فهو دين الله، لا تنال منه الجاهلية، ولا يمسه الفرعون بسوء، فجاء الرد من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحامل هذا الدين يجمع بين اللين وبذل المعروف والتجرد له عند الدعوة والبيان، ويجمع بين الاستعلاء بالإيمان، وتحدي الطغيان عند مواجهة الفراعنة والطواغيت، كما وإن كان هيناً ليناً قريباً سهلاً مع الناس، وهو يخالطهم ويدعوهم، فهو كذلك حافظاً لكرامته، وقوياً في شخصيته..

فالجاهلية تحاول محاولة خبيثة عندما ترى الطيبة واللين في شخصية الداعية، فتروح تسخر منه، وتجعله مادة للفكاهة والضحك، والغرض الخبيث من ذلك ليس هو الاستهزاء بشخص الداعية، إنما زعزعة وامتهان "الرسالة" التي يحملها، فيتم الطعن في الرسالة بصورة غير مباشرة، فتقل مكانتها وقيمتها بين الناس !

ومكر فرعون بموسى وقومه:

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولكن لا شيء يقع في أرض الله إلا بأمر الله؛ فكانت إرادة الله هي الواقعة "فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا"..

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

وأخلف الله بني إسرائيل، وأورثهم الأرض، وفي يوم الحساب سيأتي الجميع ليقف بين يدي الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة (7، 8)]. والتذكير بالآخرة هنا له دلالة هامة في الانتباه إلى عدم الركون إلى الدنيا أو الاغترار بها، فقد اغتر فرعون بملكه؛ فهلك.. وجاء الدور على بني إسرائيل، فإن مضوا على سنة فرعون.. هلكوا، وسنن الله لا تحابي أحداً.

***



يقول الله تعالى في سورة طه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

في سورة طه تفصيلات ودروس جديدة مختلفة عن دروس سورة القصص التي تناولت أيضاً جزءاً من بداية قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولعل سورة طه في مطلعها تشد من عزم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ،

وتواسي آلامه.. وهو يواجه تكذيب الجاهلية من حوله، وهو يرى يد الطغاة تنال من المؤمنين! فيأتي مطلع السورة: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" بل هو النعمة والخير والسعادة والفلاح، فيه النور والضياء والهداية والراشد: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة (16، 17)]. بل هو الفرحة والرحمة: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس (58)].

وهو تذكرة.. لمن يرجو لقاء الله، تذكرة لما هو مركوز في الفطرة من الإيمان، وسيُعرض عن التذكرة من لا يخشى، وكيف لا يخشى وهو تنزيل ممن خلق الأرض والسموات العلى؟! وهو صاحب العرش الذي هو أكبر من السموات والأرض؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مهيمن ومحيط وقادر، فكل شيء في قبضته جَلَّ جَلَالُهُ، ورسم هذه الصورة من الهيمنة الكلية الكاملة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فله ما في السموات وما في الأرض، وما بينهما وما تحت الثرى - تربية للمؤمن استعداداً للمهمة التي سيواجهها أمام الطغاة، عندما يرى في أيديهم شيء من مُلك أو سلطان، فلا يضعف، ولا يلين، ولا يستكين.. بل يستشعر القوة الإلهية التي أمرته بهذه المواجهة، وهذا الإله هو الإله الحق، له كل شيء، ومالك كل شيء، وقادر على كل شيء.. ولا بد من المواجهة، ولا بد من البلاغ.

وتبدأ قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذه المقدمة والتمهيد؛ لتُبين لأخيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.. صورة من صور المواجهة مع الفراعنة والطواغيت؛ لتكون له - وللمؤمنين من بعده - زاداً وعوناً، وكاشفة لهم عن سنن الله، وسبيل المجرمين، ونهاية المكذبين، ومصير المؤمنين.

| | |

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ

عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

وبينما موسى يسير بأهله، فيجد مصدراً للنار أو للنور.. فإذا به يسمع النداء: "إني أنا ربك" وخاطب الله جَلَّجَلَالُهُ لمخلوق من مخلوقاته يُعد تشريفاً وتكريماً لجنس هذا المخلوق، ولقد مَن الله على هذا الجنس البشري، وكرّمه تكريماً يليق بجلاله، فتفضل الله العظيم على هذا المخلوق بنعمة الخلق، والوجود ابتداء، ثم وهبه الحياة، ووهبه من بعد الحياة الخلود في الآخرة، وتفضل عليه بخلقه على فطرة الإيمان بالله، والاستسلام له، وأرسل له الرسل وأنزل له الكتب؛ لتُذكره بما هو مركوز في فطرته، فكرّمه الله غاية التكريم، واختاره من بين ملايين المخلوقات؛ ليكون سيد هذه الأرض، وخليفتها.. وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه، ثم يصطفي من رسله من يشاء ليكلمه، تكريماً، وتعظيماً لشأن الرسالة، ومكانة الرسل: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة (253)]. وبياناً لعظمة ودور الإنسان على هذه الأرض: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك (2)].

| | |

﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾

وفيه تغيير لحالة موسى الظاهرة والباطنة، استعداداً لتلقي كلمات الله، كما هي عند المسلمين في الوضوء، والنية، واختيار مكان طاهر للصلاة؛ استعداداً للقاء الله في الصلاة.

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

وتتكرم إرادة الله باختيار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليكون رسولاً نبياً.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مطلق المشيئة، فيقول جَلَّ جَلَالُهُ: "أنا اخترتك" فقضي الأمر، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا شريك في قدره.. وعلى الإنسان التسليم والرضى والفاعلية؛ لتحقيق ما يحبه الله ويُرضيه.

ويأمر الله جَلَّ جَلَالُهُ موسى بالاستماع لما يُوحى إليه من الكلمات.. فماذا كانت هذه الكلمات ؟

إنها: قضية التوحيد وما يترتب من واقع عملي على هذه القضية من: العبادة، وإقامة الصلاة والذكر، ثم تذكرة باليوم الآخر، ثم التبعة الفردية لكل إنسان وتحمله نتيجة سعيه وما قدمته يداه، والحذر من المكذبين، وممن اتبعوا أهوائهم بغير هدى من الله.

وبتلخيص هذا العرض يكون: (قضية التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، وسعي الإنسان، وعدم اتباعه الهوى).

ويجب أن نقف طويلاً أمام هذا التلخيص؛ لنتأمل هذا الإيجاز من كلمات الوحي وهي تؤكد على القضية الأولى الرئيسة وهي "قضية التوحيد": "إنني أنا الله لا إله إلا أنا".. فلا إله غيره، ولا رب سواه، ليس هناك إله مع الله، فهو الخالق المالك الرازق المهيمن، ولا رب يُطاع ويُتبع، ويذل الإنسان ويخضع له سوى الله.. وهذا هو إعلان الحرية وفك القيود والأغلال التي تضعها الفراعنة والطواغيت على عنق الإنسان؛ لتجره كالبهيمة، وتستعبده وتذله، وهذا الإله الذي لا إله غيره هو الأحق بالعبادة في كل صورها المادية والمعنوية.. سواء في إقامة الصلاة والشعائر، أو في حب القلوب ووجلها لله جَلَّ جَلَالُهُ، أو في الطاعة والتشريع والاتباع، فكلها ذكر لله، وإقامة للتوحيد.

وهذه هي الآية الأولى لما أُمر موسى بالاستماع إليه.. أما الآية الثانية فهي اليوم الآخر وسعي الإنسان، وجعلهما في آية واحدة:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥ ﴾

والإيمان بالساعة واليوم الآخر قضية أصيلة من قضايا التصور الإسلامي لا يقوم الإيمان بدونها، فهي التي ترفع الإنسان من إدراك البهيمة، إلى الإيمان بالغيب، وتدحض نظرية أصحاب الفكر المادي الوجودي، الذي يعبد المادة، ولا يؤمن إلا بالمحسوس من المادة ! وعلم الساعة وموعدها لا

يعلمه إلا الله، ولا يفيد علم الإنسان بموعدها؛ لأنه ليس من شأنه، فهو في هذه الحياة في ابتلاء وامتحان حتى تأتي ساعة موته أو ساعة انتهاء الحياة الدنيا، وكل ما يجب أن يشغله في هذا الامتحان هو: النجاح والتفوق..

والإيمان باليوم الآخر، يرفع من شأن الإنسانية كلها، ويُرقي خلقها، وفكرها، وتصوراتها.. ويجعل من كل إنسان، قيمة، وتبعة، وأهمية، فليس هو كمّ مهمل أو رقم عددي في هذه الحياة، بل هو صاحب إرادة واختيار، وله موعد ينتظره، وجزاء يأخذه.. وستجزى كل نفس بما تسعى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم (95)]. كل نفس تحمل كرامة، وتحمل غاية، وتحمل أمانة، وتملك اختياراً.. ولا يجب أن تستسلم النفس لإهانة الطغاة، وتحويل الجماهير والشعوب إلى متاع لهم.. ولن يُغنيهم الفراعنة شيئاً.. فستأتي كل نفس بما كسبت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدّثر (38)]. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة (7، 8)].

وهذه الساعة، وهذا اليوم الآخر، لا بد وأن يتملّك من تفكير الإنسان؛ لتنضبط حركته في الحياة الدنيا، ويجب أن يحذر مما وممن يُخدره عن الإعداد لها، أو ممن لا يؤمن بها:

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

يجب أن يحذر الإنسان ممن غرق في الحياة الدنيا فلم يعد يرى سواها، ولا يعمل إلا من أجلها، فذاك لا يؤمن بالساعة من الناحية العملية – سواء كان يعتقدها نظرياً أو لا يعتقدها – وكذلك هناك من ينكر الغيب كله، ولا يؤمن بالساعة ولا بالحساب ولا بالجزاء.. وكل هؤلاء الاقتراب منهم خطر على الإنسان، وعلى إيمانه.. ففي مخالطتهم خطورة الصد عن الإعداد للساعة، والعمل لذلك اليوم الآخر الباقي.

وإن من لا يؤمن بالساعة سواء من ناحية العمل لليوم الآخر، أو رد الإيمان الغيبي كله.. هو ممن اتبع هواه بغير علم، وهو من الهالكين لا محالة.

وفي هذه الآيات الثلاث تلخيصاً لقضية الوجود الإنساني كله: فهي توحيد الله جَلَّجَلَالُهُ، والإيمان بالرجوع إليه والوقوف بين يديه، وسعي الإنسان في هذه الحياة هو له، ومُجزي به.. ونجاته من الهلاك

هي في عدم اتباع الهوى بغير هُدى من الله، وعدم الغفلة عن اليوم الآخر، ولا يقدر على هذا الإعجاز اللغوي إلا رب الأرض والسموات.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

| | |

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

ويتوجه الله جَلَّجَلَالُهُ بالسؤال – وهو أعلم السر وأخفى – لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تكريماً له وأنساً.. عن ما يُمسكه بيمينه.. ويُطنب ويُفصل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ليُطيل الحوار.. والله جَلَّجَلَالُهُ يتفضل عليه بالسؤال والسماع، وإنه لفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.. ونرى في هذه الآية لطف الله ورحمته بالإنسان، فهو جَلَّجَلَالُهُ في معرض الحديث عن الرسالة، وعن قضية الوجود الإنساني كله، يتلطف بموسى، ويترك له مساحة الحوار والكلام؛ تخفيفاً عنه رهبة الموقف وهوله، ويا لها من رحمة وحب وحنان.

ويأخذ الحوار اتجاهاً آخر هو القدرة الإلهية المطلقة؛ تهيئة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واستعداداً للمهمة الكبرى:

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

وفي هذه الرؤية المباشرة لآيات الله الكبرى؛ تقوية لقلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفضلاً ومنة من الله، فليس بعد الاستماع لكلام الله ورسالته فضل، ولكن فضل الله عظيم، وهو جواد، كريم، حليم..

ولكن ما هي المهمة الكبرى ؟

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

فبعد عرض قضية الوجود الإنساني كله، وتلطيف الرهبة التي كان فيها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورؤيته للقدرة الإلهية المطلقة.. تأتي المهمة الكبرى التي على الرسل والمؤمنين من بعدهم حملها: إنها مواجهة الفراعنة والطواغيت والطغيان في الأرض؛ ليردوا الأمر كله لله؛ وليحرروا الناس من نير الذل والعبودية والاستبداد، وفي هذا الأمر الإلهي يتبين أمرين:

الأول: الأمر الإلهي بمواجهة الطغيان والطغاة في كل جيل، وفي كل زمان، ومكان.. ونزع ما ادعوه من ربوبية على الخلق، ومن إخضاع الناس لنظمهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، ورد الطاعة والاتباع والذل لله وحده بلا شريك.

الثاني: أن الله جَلَّجَلَالُهُ أمر رسوله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذهاب إلى فرعون "أولاً" وهو رسول لبني إسرائيل خاصة.. ذلك أن بني إسرائيل كانت تحت حكم ونظام الفرعون، وهم أسرى تحت هذا النظام، ولا بد من خلاصهم أولاً من هذا النظام القاهر عليهم؛ فتصبح قضية موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأولى هي "تحرير" قومه أولاً؛ حتى يكون الخلاص الحقيقي لتلقي شرع الله وأمره، والاستجابة الممكنة له، دون أن يعترضها نظام الفرعون وجنده ودستوره.. ويبدو أنه بدون هذا التحرر ستصبح الرسالة مجرد كلمات جميلة، وعبارات عذبة.. ولكن لن يستجب لها أحد الاستجابة العملية؛ لأنهم يرونها من خلف أسوار وقضبان نظام الفرعون، كما أنه بدون هذا التحرر.. سينظر الناس إلى الرسالة كصورة مستحيلة التطبيق والإقامة، وأنها لا تخاطب واقعهم وحياتهم، بل وربما تفقد قيمتها ونورها في نظر الناس، فجاء الأمر الإلهي بمواجهة الفرعون..

وفي الآية نور للمؤمنين في كل جيل، بتحرير أقوامهم من طغيان الفراعنة والطغاة والطواغيت، والإعداد لهذه المواجهة التي لا بد منها؛ حتى يتمهد الطريق أمام الناس لتعود لدين الله وشرعه..

فلا سبيل لـ "التوافق أو الإصلاح أو الوحدة" فلا بد من رد الأمر كله لله، فلا فراعنة ولا طواغيت، ولا أهواء بشر.. إنما الدين كله لله، والربوبية خالصة كلها لله، والألوهية خالصة كلها لله، ومن يحاول أن يمارس شيئاً من الربوبية أو الألوهية على خلق الله، فهو عدو الله ورسله والمؤمنين، وعدو الإنسانية كلها، لا بد من مواجهته، وتحرير الناس من عبوديته.

| | |

وطلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العون من ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

طلب موسى العون بانشراح الصدر للرسالة، فلا يضيق بها، ولا يتثاقل عنها، وأن ييسر الله أمره، وأن ينطلق لسانه بقول الحق غير متلجلج ولا متذبذب؛ ليفقه الناس حقيقة الرسالة، وطلب أن يشد الله أزره بأخيه، وأن يشاركه الأمر؛ حتى تسبح الألسنة والقلوب باسم الله، وتذكر اسمه، فهو البصير بأحوال الإنسان وضعفه..

ونلحظ هنا أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يطلب خرق سنة، أو أن يكون له معجزة مادية، بل طلب ما يتقوى به على مهمته، من أحوال روحية ومعنوية ومادية يستطيع أن يسألها كل إنسان.. فهو طلب انشراح الصدر، وتيسر الأمر، ومتى انشرح صدر الإنسان بنور الله؛ انطلق يحطم الصعاب، ويقتحم الأهوال، ويزيل العقبات.. وذكر الله، وتسبيحه كثيراً، هو الآخر زاد هذه الرحلة، فهو الذي يملأ القلوب ويُأنس وحشتها، وهو الذي يقطع الوساوس عن العقول، وهو الذي يثبت الذين آمنوا.

فيأتيه الجواب من رب العالمين، ذو الفضل العظيم:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

والله سريع الإجابة، قريب من عباده ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة (186)]. ويناديه الله باسمه تشريفاً

وتعظيماً له "يا موسى".. ويُبين الله جَلَّجَلَالُهُ لموسى مِننه عليه، ورحلته منذ مولده، حتى مجيئه هذه اللحظة، ويد القدرة الإلهية هي التي تدبر وتُقدر، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.. من أوحى إلى أم موسى أن تلقيه في البحر - بعد وضعه في صندوق - ليذهب إلى عدو الله وعدو موسى، وجعل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكيد للفرعون الطاغوت هو "الحب" ! إلقاء المحبة على الطفل موسى؛ ليأخذه فرعون.. ويد القدرة الإلهية هي التي منعت الرضاعة عنك؛ لترجع إلى أمك كي لا تحزن، ونجنيك من الغم لما وقعت في الخطأ، ولبثت في أهل مدين، ثم جئت على قدر - وكل شيء خلقناه بقدر - وهذه الرحلة من المحن والفتن.. لبناء شخصية موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ لتقوى وتشتد بعد أن أصقلتها التجارب والمحن.. فلم تكن هذه التجارب من أجل التعب والمعاناة، بل من أجل البناء والقوة والخبرة المناسبة لهذه المهمة العظيمة.. مهمة مواجهة طغيان فرعون، وكل ذلك تم على عين الله، وبتدبيره، وبلطفه، ومشيئته..

هذا التشريف لموسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، بذكر المحطات الرئيسية في رحلة حياته، ويُبينها الله العظيم له.. هو في حده ذاته تكريم ما بعده تكريم.. وفيه استعراض للتدبير الإلهي لكل صغيرة وكبيرة، وإن الأمور لا تمض خبط عشواء، بل من وراء كل حدث تدبير وحكمة ورحمة وعدل وفضل، ولقد صنع الله نبيه موسى على عينه جَلَّجَلَالُهُ.. فأحاطت به العناية الإلهية من كل جانب، وهو في قبضة فرعون - عدو الله وعدوه - ومعية الله هنا أنساً وأمناً لموسى، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قادر على إزالة ملك فرعون كله، وملك كل من في الأرض بكلمة واحدة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس (82)]. وإنما قوله: "عدوٌ لي، وعدو له" هو من باب معية الله مع موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومن كان عدواً لله، فهو هالك لا محالة، وخاسر لا محالة.. حتى ولو ملك كل قوى الأرض، وكان له الإنسان والجن بعضهم لبعض ظهيراً !

وأمام القوة المادية لفرعون، التي يستعبد بها الخلق، ويعتدي بها على ربوبية الله في أرضه.. يكون التدبير الإلهي لمواجهة هذه القوة التي بها طغى فرعون هو: "الحب" و"النجاة من الغم" فهي أمور معنوية غير منظورة إلا أن تأثيرها في واقع الحياة أثقل من الأشياء المادية المحسوسة، فجعل الله الحب سبباً في نجاة موسى، بل وفي ذهابه إلى قصر فرعون ذاته !

والنجاة من الغم: نعمة عظيمة لا يعرفها إلا من تملك الغم والحزن قلبه؛ فأقعده عن السعي في الحياة، وأفقده لذة العيش والكفاح، وشل حركته وطاقاته عن العمل، فمتى تَملك الغم من القلب شله، وأحلت الكآبة والحزن على وجه الإنسان وروحه، وفقد القدرة على قيادة زمام الحياة، والسعي فيها، فهو مهلكة "نجى" الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موسى منها؛ ليستعد للمواجهة الكبرى.

وتؤكد الآيات – استعداداً للمواجهة الكبرى – على أن الله وحده هو المدبر، وهو القوة الوحيدة المتحكمة في هذا الوجود فنجد: (محبة مني، تصنع على عيني، رجعناك، فتناك، على قدر) فهو جَلَّجَلَالُهُ مطلق الإرادة والمشيئة والقدرة.. هو الذي يدبر كل ذلك، وهو يعلم ما كان، وما سيكون، وما قد كان، فلا يعجزه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حاجز من زمان، أو مكان، فهو فوق الزمان والمكان، وهو يرى ويعلم ويدبر ويُقدّر كل شيء كائن وسيكون..

ثم تختتم الآيات رحلة موسى حتى لحظة الوادي المقدس بأعظم وأسمى تشريف يناله الإنسان: "واصطنعتك لنفسي" فيا لها مكانة، أن يدبر الله لإنسان؛ ليكون خالصاً لله وحده؛ ليحمل رسالته، ويواجه عدو الله وعدوه.. وكلها نفحات إلٰهية عظيمة؛ تثبيتاً لقلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتشريفاً له.. وما أعظمها من نعمة أن يصنع الله جَلَّجَلَالُهُ بتدبيره – من عباده – من يحمل رسالته، ويمضي يحطم رؤوس الطغيان والكفر، ويدعو إلى الله ورضوانه وجنته.

وبعد هذا التشريف والأنس والتكريم والرفعة والمكانة والطهارة يأتي التكليف الذي يناسب هذا التشريف:

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝٤٢ ﴾

الأمر المباشر "اذهب" فيه الإسراع والجد والعزم وعدم الفتور عن الذهاب، وعدم الفتور عن ذكر الله؛ فذكره يثبت القلوب في لحظة لقاء العدو، وفي كل لحظة، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال (45)].

وبدأ حوار المهمة الكبرى التي من أجلها صنع الله جَلَّجَلَالُهُ موسى لنفسه، وعلى عينه.. بقوله: "اذهب إلى فرعون إنه طغى" ومرت الآيات على طلب موسى العون من ربه، وعلى استعراض نِعم

الله على موسى، وهي تبين يد التدبير الإلهي في كل حدث ولحظة، وهي تُوحي لموسى معية الله، وكرمه، وتشريفه، واصطفائه له.. ثم يختتم الحوار بنفس ما بدأ به:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

ففي الأولى: "اذهب" وبعد جواب الله لموسى بمشاركة أخيه هارون في هذه المهمة؛ كانت في الثانية: "اذهبا" وفي ذلك تأكيد وتشديد على المهمة الأصلية وتذكير بها، وعدم التواني في تنفيذها.

ولتكن الدعوة هكذا:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

ورغم أنه الفرعون المتكبر الطاغية العنيد، الذي قتل الأبناء واستحيا النساء، وسام بني إسرائيل سوء العذاب، ورغم ظلمه لنفسه بطغيانه على ربوبية الله في أرضه، وادعائه لها ! تأتي رحمة الله وفضله بهذا المخلوق الحقير.. فيأمر جَلَّجَلَالُهُ رسوله موسى بلين القول، وخفض الجناح، طلباً لتقواه واستجابته، وتذكرة له، وعبرة.. فيا لها من رحمة عميمة من رب الأرض والسموات حتى بأحقر مخلوقاته، يا لها من رحمة تطلب هداية حتى أعتى الفراعنة والطغاة، وهكذا حال المؤمن الداعية، هين لين قريب سهل يألف ويُؤلف..

وجاء في سورة النازعات: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ فكان جوابه: ﴿ كَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

والدعوة إلى الله هي أولاً وآخراً لتزكية النفس، ودعوة للهداية؛ لتتحقق التقوى والخشية لله جَلَّجَلَالُهُ، وفرعون رغم البهرجة والأبهة ومظاهر الحضارة والجمال، نفسه خبيثة سافلة منحطة تحتاج إلى تزكية، وإنَّ جمال النفس وتزكيتها ليس في مظاهر الأبهة والمادة، بل في علاقتها مع الله، وعبوديتها له، وابتغاءها رضوان الله.. وفي حسن الخُلق، وحب الخير والعدل، فكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**" [صحيح مسلم/ 2723]

والهداية هي من الله وحده، وما دور النبي إلا الإرشاد إلى طريق الله الصحيح، البعيد عن لوثة الجاهلية، ودين الآباء، وأهواء النفس..

ولا تتحقق الخشية من الله إلا بتزكية النفس، وتطهيرها، وبمعرفة طريق الله المستقيم.. هذه التزكية الروحية، والمعرفة العقلية.. هي التي تُسبب - بعد رحمة الله - الخشية والتقوى والوجل منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثم المحبة والأنس والقرب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم..

ولكن هذا القول اللين، والتلطف، والرحمة ليس عن ذلة أو ضعف أو خوار أو انبهار بمكانة الفرعون، بل عن شفقة بحالة، ومصيره الأسود، والهلاك والعذاب الذي ينتظره.. فيأتي اللين في بداية الأمر لا التحدي؛ ليكون اللين مُمهداً لسماع الحق، قبل أن تنتفش النفس بالباطل، أو أن تجرح كرامة الإنسان - حتى ولو كان الفرعون ! - قبل أن يسمع الآيات؛ فيغضب لنفسه.

فهو اللين من موطن القوة، وهو اللين شفقه بحاله ورغبة في هدايته، وهداية قومه قبل وقوع العذاب.. ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء (147)].

ولكن ماذا لو تم رد اللين، وتكذيب الآيات، والاستهزاء بالرسول، والكيد له، والحرب عليه؟! إذن فقد انتهت مرحلة اللين والدعوة، إلى مرحلة البأس والقوة، فرد موسى إهانة فرعون له بقوله: "وإني لأظنك يا موسى مسحورا" بقوله: "وإني لأظنك يا فرعون مثبورا" أي: هالك ضائع، كما جاء في سورة الإسراء.

وقد يفهم بعض المسلمون هذه الآية خطئاً، فيحسبها تزلفاً للطغاة ! ودعوة للمداهنة، والتوافق، وإضفاء الشرعية على نظم حكم الفراعنة والطواغيت ! ولكن القرآن هنا يفصل بين لين الخطاب الدعوي، وبأس وقوة خطاب التوحيد ومواجهة الطغاة.. فإذا تمت الدعوة بكل الحب واللين والرغبة في الهداية، واستبانت الحقائق، ورُدت الشبهات، وعُرف الحق من الباطل، وخرجنا من ساحة الدعوة والبيان إلى ساحة المواجهة والتحدي، فلم يعد هناك لين، ولا لطف.. بل هي القوة والبأس.

| | |

والضعف الإنساني حقيقة لا ينكرها النص القرآني.. والجسد الذي يقع عليه الطغيان والإفراط والشدة، قد يُهول للإنسان غير الحقيقة، فيتملّكه الخوف ! ولكن لا بد من التحرر من هذا الخوف، وإعلاء قوة الروح فوق هواجس الجسد، وما يحاول دفعه من آلام..

ولا سبيل لهذه القوة الروحية إلا "معية الله" لهذه الروح، وتعلقها بالله.. القوى الوحيدة الكلية المتحكمة في هذا الوجود، خالق كل شيء، ورب كل شيء.. يسمع ويرى، وكتب النصر لمن آمن به، واتبع رضوانه..

وبهذه القوة المستمدة من قوة الله ومعيته يجب أن يواجه الإنسان الطغاة والطغيان..

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

فماذا كانت مفردات الخطاب لفرعون؟

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

- بيان الرسالة، وإنها رسالة من رب فرعون، ورب العالمين.
- المطلوب: تحرير بني إسرائيل من نظم فرعون، وعدم تعذيبهم.
- هذه آية من ربك وإلهك، فلا مجال للشك أو التكذيب.
- السلام في الدنيا والآخرة، على من اتبع هُدى الله ونوره.. وهذه هي البشرى..
- أما النذير: فهو العذاب في الدنيا والآخرة على من كذب بآيات الله، وتولى عن سبيله وصراطه المستقيم.

وهذا هو القول اللين.. وهو القول الحق.. ويا له من لين ورحمة، رحمة من العذاب في الدنيا والآخرة، ولكن المستكبرين لا يعلمون.

ويتساءل الفرعون المستكبر:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

وسؤال المُستكبر الطاغية، ليس هو سؤالاً استفهامياً، سؤال الباحث عن الحق، والذي يطلب الحقيقة، والذي ترهقه الحيرة والعذاب في الوصول إلى شاطئ النجاة ! بل هو سؤال المُتهكم المعاند.. وهذا لن يُفيده الجواب، ولن تنفعه الآيات، ولكن يأتيه الجواب:

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

والحديث عن الربوبية هنا هو حديث عن مَن أحق بالطاعة والعبادة والاتباع والخضوع والانقياد والذلة؟ وما هو النظام الأولى بالإقامة في الأرض.. نظام الله وشرعه، أم نظام الفرعون ودستوره ؟!

وربوبية الله جَلَّجَلَالُهُ في كل شيء - فهو الذي له الخلق والأمر - فخلق كل شيء، فقدره تقديراً، وهدى كل مخلوق لوظيفته، ودوره، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القَيم بكل خلقه، والمدبر لأمرهم.

وهذا الجواب القصير في حروفه، العظيم في فحواه، هو الجواب الشافي الكافي.. فالذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.. هو الرب الحقيقي الأولى بالطاعة والعبودية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتحول أحد مخلوقاته - في ثانية قصيرة جداً بالنسبة لعمر الحياة والوجود - ليمارس الربوبية على خلقه، وهو مخلوق مثلهم ! والأعجب أن يستجيب الناس له !

ويتساءل الفرعون.. وربما هذه المرة بشيء من التأمل، أو التعجيز لموسى:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾

يسأل عن مَن سبقه مِن أقوام وأمم وشعوب ! وربما كانوا يحسبون أنهم مهتدون، وأن فرعون وقومه على مثل هدايتهم.. والسؤال عموماً خروجاً عن القضية الأصلية إلى الدفاع الذاتي عن المُسلّمات الفكرية، فالسؤال الأصلي هو: قضية الربوبية لمن، ومن أحق بها، وهل لها من شريك ؟

ولما أتاه الجواب بما يخالف المُسلّمات الفكرية لديه، سأل عن القرون الأولى ربما قرون أسرته من الفراعنة، أو قرون الأمم الأولى من البشرية، ولعل السؤال يُشير إلى منهجهم الفكري والتعليمي.. إذ

يُقدّم أسرته من الفراعنة أو المكذبين من القرون الأولى على أنهم أهل الهداية والفلاح، وإنهم يتابعونهم في دينهم، وفي نظم حياتهم..

كما تفعل الجاهلية المعاصرة.. عندما تنبش في فكر رفات الأمم الهالكة، وتقدمها للمسلمين على أنها هي الهداية والرشاد والحضارة والتطور الذي يجب على الناس اتباعه، أو حتى مجرد الفخر بمن كذب وتولى!

ورغم الخروج عن السؤال الأصلي، يأتيه الجواب، مع العودة إلى القضية الأصلية.. قضية الربوبية والتوحيد:

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

إن القرون الأولى والحالية والآخرة علمها عند الله.. والله يحصي عليها أعمالها، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف (49)].

وإننا الآن لسنا في معرض محاكمة القرون الأولى، ولسنا في معرض الدفاع عن المُسلّمات الفكرية في عقول البعض، إنما في مجال "إنقاذ أنفسنا" فلا حاجة للجدال والدخول في تفصيلات فرعية.. فلنركز في القضية الأصلية قضية ربوبية إله الأرض والسموات، وفي التعريف به جَلَّجَلَالُهُ.. فمضت الآيات تطوف بالأرض التي تحمل الإنسان وجعلها الله له ممهدة فيها سبل تسهل حركة الإنسان، ويعرج بالسماء التي تُظلل الإنسان، ومنها ينزل الماء مادة الحياة الفريدة، فأخرج الله به النبات والطعام من كل شكل وطعم ولون أزواجاً شتى؛ ليأكل الإنسان والأنعام، وهي إرادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في خلقه،

وليست خبط عشواء ! أو صدفة فلتة ! أو تطور مجهول ! وفي النظر إلى الأرض والسماء كفاية من الآيات لأصحاب العقول السوية، والفطرة السليمة.

وتأتي الآية الأخيرة – في هذا المقطع – للحديث عن خلق الإنسان من طين الأرض، وإليه يعود بعد الموت، ومن الأرض يُبعث للحساب مرة ثانية، وهذه الآية وحدها كفيلة أن تهز الكيان الإنساني كله؛ ليرى حقيقة ضعفه وخلقه، ثم فناءه وتحلله، ثم عودته لربه يوم البعث والحساب.

وركزت قضية التعريف بالربوبية في بيان الكون الذي يحيط بالإنسان من أرض وسماء وماء وطعام، وقضية خلقه وبعثه، دون الدخول في قضايا فلسفية كلامية باردة.. كالتي تلوث بها الفكر الإسلامي في فترة من فتراته عندما أُفتتن بالفلسفة الإغريقية اليونانية !

ولكن ماذا بعد هذا البيان والجواب عن الأسئلة الأصلية والفرعية لفرعون.. هل آمن ؟ هل حقاً كان يبحث عن جواب أو يطلب الحق ؟

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾

لقد كذّب بالآيات، وأبى الهداية، وتنكف عن سبيل الرشاد، وحوّل قضية الربوبية إلى قضية ذاتية شخصية.. إنها قضية "المُلك والمتاع"، ولكن في قول فرعون: "أجئتنا لتخرجنا من أرضنا" إدراكاً لبعض حقيقة الربوبية التي طرحها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفيها يكون الأمر والدين كله لله.. ولكن فرعون – لشقائه – لمن يفهمها هكذا، ولكنه فهمها على أنها قضية "سلطان" يجب أن يدافع عنه !

والفراعنة والطغاة في كل جيل عندما تأتيهم دعوة التوحيد الخالص، والربوبية التامة لله رب العالمين، ويستشعرون الخوف على مُلكهم الفاني.. يتركون القضية الأصلية، ويتهمون الدعاة بأنهم يريدون قلب نظام الحكم، والإفساد في الأرض ! ويطلقون يد العذاب لتفتن المؤمنين عن دينهم، ولكن معية الله حاضرة، ونصره آت، ولكن الطغاة لا يعلمون.

ولما عجز فرعون عن الرد على جواب موسى في قضية الربوبية ودلائلها المحيطة بالإنسان من كل جانب، بل هي في ذات الإنسان نفسه.. تحول بالقضية إلى "التحدي" المادي بعد اتهام موسى

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالسحر ! وأنه سيأتي بسحر مثله ! ولعل طلب فرعون تحديد الموعد والمكان زيادة في التحدي، ومحاولة منه لإثبات قوته، ورداً لعجزه عن جواب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورداً لمكانته التي استبانت حقيقتها أمام ربوبية الله رب الأرض والسموات.

وقبِل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التحدي.. ليس لقوة موسى، وإنما لمعية الله معه:

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

واختار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوم عيد لهم – في وقت اجتماع الناس فيه – زيادة في التحدي من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورغبة منه في رؤية الجميع آيات الله، عسى أن تتفتح قلوبهم للحق والإيمان.

وأعد فرعون عدته:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾

وموسى يذكرهم بالله قبل المواجهة والتحدي، فهو يخشى أن يقع عليهم العذاب، وهذه رحمة النبي بقومه.. عندما يراهم يركبون رؤوسهم ويمضون في غيهم، وهو لا يَمل من دعوتهم، ولا ييأس من صلاحهم ! ويُذكرهم أن الظلم والافتراء على الله، سيخيب ويندحر، فراجعوا أمركم قبل فوات الأوان:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

فكان رد فعلهم على هذه التذكرة:

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾

ويبدو أن موعظة موسىعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهم جعلتهم يراجعون أمرهم.. ويتشاورون فيهما بينهم، والتشاور إذ لم يكن على هدى من الله، ومن أجل رضى الله، كان تشاور في الباطل، وعلى معصية، وإجماع ليس على الخير والفلاح إنما على الشر والهلاك.. ويبدو في هذا التشاور مَن حاول إظهار قول

فرعون، وجعل القضية صراع على السلطان والمتاع.. وتمت عملية "التخدير العقلي" و"الاطمئنان النفسي" أن طريقتهم هي "المثلى" وأنهم أصحاب الحق الأصيل ! فليس هناك أفضل منهم ! بل هم القدوة والمثال الذي يجب أن يتبعه الناس !

وعملية التخدير العقلي والاطمئنان النفسي.. ضرورة تمارسها الجاهلية والطغاة في كل زمان ومكان، حتى يأمنوا عملية "ثورة الفطرة" و"يقظة العقل"، فيجب أن تكون الجماهير مقتنعة أن طريقتها هي "المثلى" وأنها تعيش في سعادة وهداية ورشاد ! ويا له من مكر.. يرفع من مسؤولية الإنسان تجاه إنقاذ الناس من هذا الخداع والتخدير !

وانتهوا إلى الاجتماع.. ولكنه اجتماع على الباطل، ولن يُفلح !

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

حقاً.. قد أفلح من استعلى، ولكن من استعلى بربه، وبالإيمان بربه، وليس الاستعلاء بالباطل وبالتكذيب.

وبدأت المواجهة:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

وأراد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن تكون الجولة الأخيرة له.. وتكون كلمته هي الباقية في قلوب الناس، فلو ألقى عصاه ورأها الناس حية تسعى، ثم جاء السحرة، فحوّلوا حبالهم وعصيهم إلى حيات هي الأخرى، لفهم الناس أنه مجرد سحر لا فارق بينهما فيه ! ولكنه تدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لموسى..

تحولت الحبال والعصي إلى شيء متحرك، فإذا هي تسعى! كيف تم هذا السحر؟ وكيف سحروا أعين الناس؟ هل استخدموا تقنيات علمية لهذا العمل؟ هل استعانوا بإخوانهم من الشياطين

لتساعدهم؟! لا يهم، فهو في النهاية كيد ضعيف، فإذا كان تقنيات علمية.. فمجرد المعرفة بها والاطلاع عليها لا تجعل منها سحراً، فقد أدرك الإنسان حقيقتها وعرف أنها ليست خارقة للسنن الكونية، وإن كانت كيداً من الشيطان، فهو كيد ضعيف هو الآخر، لا يتملّك إلا من قلوب الضعفاء الخاوية قلوبهم من ذكر الله، ولا يقع أيضاً إلا بإذن الله..

وقد أحدث هذا الموقف خيفة في نفس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.. لم يُظهرها، ولكنه الضعف الإنساني، والتأثر الطبيعي بما يشاهده الإنسان، وهو يقف في يوم الزينة، والناس كلهم تُشجع وتطبل للسحرة، وهو موقف نفسي عصيب.. ولكن معية الله، وتثبيته للمؤمن حاضرة دوماً.. ولا يطلبها المؤمن بصدق إلا وجدها.. فجاءه التثبيت الإلهي: "لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ" أنت الأعلى والأكرم بالإيمان وبالرسالة وبالحق الذي معك، وإن كل هذه الزينة والبهرجة والسحر والحشد الذي فيه كل هؤلاء هو باطل وسافل لأنه ليس على هدى الله، ولا ابتغاء رضوانه..

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

وانظر إلى قدرة الله ورحمته.. ألق ما في يمينك تلتهم سحرهم وكيدهم فهذه هي القدرة الحقيقية الكلية.. ليس فيها خداع بتقنيات أو بفعل الشياطين؛ فهذا الكيد لن يُفلح أمام قدرة الله وإرادته.. ولن يُفلح الساحر الذي يتبع الشياطين، أو يخدع الجماهير بأنه صاحب قوى خارقة، تخالف السنن، أو تنفع أو تضر مع الله.. فكل مُخداعٍ خاسر وهالك لا محالة.

وتحدث المفاجأة!!

لقد أدرك السحرة أن هذا ليس بسحر.. بل هو قدرة إلهية، أودعها الله في عصى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وبهذا الإدراك عودة إلى القضية الأصلية بعد التخدير العقلي بأنها قضية صراع على المُلك والمتاع والسلطان، القضية التي حاول فرعون تعميمها ونشرها بين السحرة، ولكن حدثت الإفاقة العقلية، وانتفضت النفس من خدرها، وانهارت الطريقة المثلى التي كانوا يحسبون أنفسهم عليها..

وما أجمل الصدق مع النفس فهو سبيل نجاة، هذا الصدق الذي دفع السحرة إلى التواضع أمام القدرة الإلهية، وإلى إدراكهم أنهم ليسوا حقاً على "الطريقة المثلى"، وإن الطريقة المثلى هي في العبودية الخالصة لله جَلَّجَلَالُهُ.. كل ذلك حدث في لحظات بل ثوان معدودة:

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

فماذا كان موقف الفرعون؟

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

لم يدرك فرعون ما أدرك السحرة بعد اليقظة من الخدر، ولم يلمس ما لمسته قلوبهم من الإيمان.. لأنه يُصر على الباطل، ويستكبر عن رؤية الحق الظاهر الواضح.. ويحوّل قضية ظهور الحق، وبيان الآيات إلى قضية "تجاوز" كبيرهم فرعون، وعدم إذنه في الإيمان؟! وهل لفرعون سلطان على القلوب؟! وهل يملك أن يرد لمسات الإيمان الندية وهي تسقي القلوب الظمأة ؟!

كـلا، لا يملك سلطان على القلوب، ولا حتى سلطان على نفسه.. فالكل بين يدي الله، والقدرة والقوة كلها لله.. ولكن قد يقع لبعض خلقه – بإذنه – شيء من مظاهر قوة؛ ليبلو بعضكم ببعض، فيوظف الأشقياء هذه القوة في الفتك بالمؤمنين – كحال السحرة هنا – فيتوعدهم بالعذاب.

والعجيب أنه يتحدى الله جَلَّجَلَالُهُ! وهذه نهاية الكبر ومنتهاه، وهذا هو الجهل الكلي بالإنسان، وبالكون، وبالحياة، وبالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويهدد السحرة ويتوعدهم بمن هو أشد في العذاب وأبقى؟! ولقد عَلم الفرعون من هو أشد عذاباً وأبقى.. يوم أُلقي جثة هامدة على شاطئ البحر يُعرض على النار غدواً وعشياً، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر (46)]

وإنها إهانة للإنسانية وللجنس البشري كله، أن نترك فيه لطرفة عين من يتحدى الله جَلَّجَلَالُهُ هذا التحدي دون رد ومواجهة.. ولقد وجدنا من الفراعنة والطغاة من يقول أشد من ذلك، ولولا فضل الله ورحمته ما ترك عليها من دابة، وإن هذا التحدي وسوء الأدب، لا بد أن يقابله الحزم والقوة من المؤمنين في كل جيل، وهكذا كان حال السحرة:

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾

إنه إعلان الحرية الحقيقي، وإعلان قيمة الإيمان في القلوب، وتملّك الإيمان منها، إنه التحرر من الوهم والخرافة والدجل، إنه التحرر من سجن الدنيا.. إلى سعة الدنيا والآخرة، فهل يتنازل السحرة - بعد إيمانهم - بكل ذلك؟ كلا، قالوا: لن يُفضلّوا فرعون على ما لمسته قلوبهم، وما استنارت به عقولهم.. إنه نور الله عندما يُضيء كيان الإنسان، فيستحيل إلى ميلاد جديد، وقلب يتلألأ بالإيمان.

فالعلم والآيات نعمة، ومعرفة الذي فطرهم وخلقهم - وهو أحق بالربوبية من فرعون - نعمة.. نعمة لا تضاهيها نعمة سوى رضوان الله.

وهذه الحالة الإيمانية الفريدة في شعورها وإحساسها، عندما تلمس قلب المؤمن فلا يشعر إلا الله، ولا يرى إلا الله.. جعلت السحرة - بعد إيمانهم - ينظرون إلى تهديدات فرعون نظرة استخفاف، ورضى، فماذا يملك الفرعون؟ عذاب يُطلقه على المؤمنين ساعة في هذه الدنيا.. إنه لا شيء أمام عظمة الإيمان وروعته وشعوره في قلوب المؤمنين:

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾

وإنهم ليرجون رحمة الله، ومغفرته من الخطايا.. والله غفور رحيم، باب التوبة مفتوح، والله يعفو ويصفح، ويريد للإنسان الهداية والسعادة والفلاح، فقط على الإنسان "الاستجابة" لمنادِ الإيمان، ولا يستكبر ولا يغتر ولا يُكذب، ولا عن الحق والصراط يتولى..

ولعل في قول السحرة: "وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ" هو الإكراه المعنوي، وليس الإكراه المادي.. الإكراه المعنوي بالمال والمكانة، وبادعاء الطريقة المثلى، وبالتخدير العقلي والنفسي ! وهذا الإكراه تمارسه الجاهلية في كل مكان، تمارس الإكراه بشقيه المادي في البطش والقهر لمن يدعو إلى ربوبية الله على خلقه؛ وأحقيته بالطاعة والاتباع والخضوع لأمره وشرعه، والإكراه المعنوي بالإغراء بالمال والمكانة والأمن من البطش، وغيرها من أساليب التخدير العقلية ! وعلى الإنسان حتى ينال الحرية أن يحطم كل هذه القيود وينطلق عبداً لله وحده لا شريك له..

"وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ".. وهو رد على قول فرعون: "وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ" الله خير، والله أبقى؛ وسيذهب عذاب فرعون، ويبقى الأجر عند الله، وهذه الحياة الدنيا زائلة.. والآخرة خير وأبقى، وعذاب الله أشد وأبقى، وخير الله خير وأبقى.

ويأتي هذا التعقيب الإلهي على تكذيب فرعون، وإيمان السحرة:

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

"جهنم لا يموت فيها ولا يحيا" هذا هو العذاب الأشد والأبقى.. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه (127)].

ويا له من عذاب؟! أن يظل الإنسان فيه بين الحياة والموت، لا يقضي عليه العذاب بالموت، ولا يستطيع الحياة ! وهو عذاب عادل للطغاة والمجرمين والمستكبرين، وأي جرم أشد من تكذيب آيات الله؟! أي جرم من فتنة المؤمنين عن دينهم؟ أي جرم أشد من ادعاء الربوبية على خلق الله؟!

وفي الجانب الآخر: من يأته مؤمناً قد صدّق بالرسالة وبالرسل وبالآيات، وأخلص قلبه لله، وانتقل هذا الإيمان إلى واقع الحياة عملاً يُصدق الإيمان، فأولئك لهم الدرجات العلى، والجزاء الحسن، والفضل العظيم إنه: جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.. حياة طيبة، ورضوان من الله، وذلك جزاء من زكى نفسه عن عبودية البشر، والخضوع للطواغيت، وزكى نفسه عن الإجرام في حق الله أو فتنة خلقه، وزكى نفسه عن سفه الجاهلية وتصوراتها وعبثها، وزكى نفسه عن الخداع العقلي، والتخدير النفسي الذي يمارسه الطغاة والفراعنة؛ ليسحروا به الناس، وزكى نفسه بالخُلق الحسن والعمل الصالح والجهاد المستمر في سبيل الله.. ويا له من جزاء.. إنها الجنة !

| | |

وفي نهاية فرعون الذي رفض أن يُرسل مع موسى قومه من بني إسرائيل– وكان ذلك سهلاً عليه – فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآن يتولى إخراجهم رغم أنف فرعون، بل وبهلكة فرعون وجنده:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

وسار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقومه وضرب لهم – في معجزة ربانية – طريقاً في البحر يابساً؛ ليتقدم فيه هو وقومه بكل قوة وعزم وإيمان، فاليوم يوم النصر، واتبعهم فرعون بكبره وغروره هو وجنده؛ فغرقوا، فكانت هذه "طريقته المُثلى"! وأضل فرعون قومه وما هدى، وما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء]

***



يقول الله تعالى في سورة المؤمنون:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وفي سورة المؤمنون هذا الإجمال – لقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون – فيه البيان عن رسولين من عند الله موسى وهارون – عليهما السلام – معهما الرسالة، والآيات البيّنات.. إلى فرعون وملئه فكان منهم "الاستكبار والعلو في الأرض بغير الحق" وهو المهلكة لمن تلبس به، وهو سبب التكذيب.

ودرس هذه الآيات هو: تهمة "البشرية" لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ! وقد سبق اتهامه بـ: [السحر – الكذب – الإفساد في الأرض – تبديل الدين – الضعف – قلة المال والمتاع] ثم أضافوا له هنا تهمة جديدة وهي: إنه "بشر" ! ولعل فرعون لم يلق هذه التهم جملة واحدة على موسى، بل كان يحاول أن يخترع تهمة عند كل مواجهة، فلا يجد إلا التماهي في الكفر مع من سبقه إليه.. فتهمة البشرية واجهها الأنبياء من قبل موسى ومن بعده، وسنة الله في رسله – عليهم السلام – أن يكونوا بشراً كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف (109)].

بل سبب التكذيب هو رفض بشرية الرسول: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء (94)].

وقد طلب الكفار من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ رؤية الملائكة أو يأتي الله إليهم ! ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾[الإسراء (92)]. تشابهت قلوب الذين كفروا.

واقتضت سُنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في رُسله أن يكونوا بشراً، ولا يخرجوا عن بشريتهم قيد أُنملة؛ حتى يكونوا قدوة ونموذجاً للناس، يعانون ما يعاني الناس، ويَضعَفون كما يضعف الناس، ويتألمون ويفرحون كما يتألم ويفرح الناس، وإذا كان الله عصمهم من الخطأ والهوى.. فإنهم بعد مازالوا بشراً، وعلى هذا الأساس كانت بشرية الرسول قاعدة أساسية لتحقيق القدوة للناس.. ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[الكهف (110)]

وجاء كل رسول ليُذكر الناس بما هو مركوز في فطرتها من إيمان بالله، ولكن الفطرة قد تنحرف وتضل، فيأتي الرسول للتذكرة والبشرى والنذير، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثم الهداية من الله: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[البقرة (272)]

فبشرية الرسول سنة الله في رسوله؛ ليكونوا قدوة للناس، والناس ابتداء لا تشترط على الله طبيعة الرسول! فلو كانت الرسل ملائكة لما آمن من جحد وكفر – ولو فُتّحت لهم أبواب السماء ليصعدوا فيها – ولو أجاب الله شرطهم.. لطلبوا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يأت إليهم ! وبعض الناس يريدون أن يجعلوا من الرسول شيء فوق البشر؛ ليحطموا القدوة والمثال.. ويبرروا لأنفسهم الخطأ؛ ليدنسوا أنفسهم.

ومرة أخرى ادعاء تهمة البشرية هو فقط لـ "المجادلة بالباطل" من أجل التكذيب، وفرعون هنا يعترف ببشريته، وبكونه مخلوق من المخلوقات.. رغم أنه قال عن نفسه من قبل: "ما علمت لكم من إله غيري" "أنا ربكم الأعلى" !

وفي اعتراف فرعون ببشريته هذه حُجة دامغة عليه، فكونه بشر مخلوق.. فله خالق مالك، صاحب الخلق والأمر.. الأحق بالألوهية والربوبية الخالصة بلا شريك، يفعل ما يشاء، ويرسل لخلقه من يشاء – حتى ولو أرسل لهم دابة من الأرض – فهو مطلق الإرادة والمشيئة لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولكن رحمة منه جَلَّجَلَالُهُ يرسل الرسول بلسان قومه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم (4)].

وفي هذا الاعتراف تكذيب للكهنة والكذبة الذين كانوا يعتقدون أن الفراعنة أبناء الآلهة، ثم انتقلت هذه اللوثة إلى الديانة اليهودية والنصرانية فيما بعد !

والجماهير بين قول فرعون: "ما علمت لكم من إله غيري" و"بشرين مثلنا" تصفق للشيء ونقيضه، وتثني عليه، وتبرره، وتبلعه، ولا ترى أدنى غضاضة في هذا التناقض، وتعتبر من يحاول كشف التناقض وهذه الاستحالة العقلية، شخصاً متآمراً عليهم، وعلى استقرار حياتهم، ونظام حكمهم !

| | |

﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ويتحدث هذا المقطع عن طاعة وخضوع بني إسرائيل لفرعون، هذا القهر لهم؛ والذي سامهم فرعون فيه سوء العذاب.. بقتل الأبناء، واستحياء النساء، والخدمة لهم..

ويجب هنا أن نُفرق بين أمرين:

بين التلذذ بالخضوع، والرغبة فيه، وتمني اليوم الذي تصبح فيه فرعوناً. وبين القهر والعذاب، ورفض الخضوع، ومقاومة الطغيان، وتمني لحظة التحرر والإعداد للخلاص.. ففي الأولى: جمع الله الضعفاء مع المستكبرين في نار جنهم، وفي الثانية: مَنّ الله على الذين استُضعفوا وجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين.

وتتكشف هنا أهمية النية والقصد والإرادة، فإن شأنها عند الله عظيم.. فقد لا يرى البعض فرقاً ظاهراً بين جماهير قوم فرعون، وبين بني إسرائيل أثناء بعثة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. ولكن النية هنا بين من يرغب في أن يكون فرعوناً، وبين من يرغب في العبودية والإخلاص لله، وإحقاق الحق

والعدل.. فرق بين السماء والأرض، والجنة والنار، لذا جاء في الحديث المشهور: "**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**" [صحيح البخاري/ 1]

| | |

ويختتم الدرس بمصير المكذبين:

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه هي سنة الله في كونه، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب (62)]. هذه الآية القصيرة تلخص نهاية الصراع، يقرأها الإنسان في ثوان معدودة "فكذبوهما فكانوا من المهلكين" نعم هي ثوان معدودة.. ولكن قد تأخذ في حياة البشرية عشرات السنين من الصراع، ومن التدافع بين الحق والباطل، ومن ابتلاء الناس بعضهم ببعض، ولكن في النهاية.. هلاك المكذبين، والعاقبة للمتقين.

وما كان إرسال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنزال الكتاب إلا هداية للناس، ورحمة من الله: ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء (89)].

***



يقول الله تعالى في سورة الشعراء:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا

ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

تستعرض سورة الشعراء جانباً من جوانب المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون، وبدأت بـ:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهو نداء الوادي المقدس - الذي تم تفصيله في سورة طه - يأتي هنا إجمالاً، بالأمر لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يأتِ القوم الظالمين.. قوم فرعون، وفي سورة طه كان الوصف لفرعون بـ: "إنه طغى" ففرعون جمع بين الظلم والطغيان.. وهو نداء للمؤمنين في كل جيل أن يواجهوا الظلم والطغيان؛ لأنه يُفسد حياة البشر الروحية والمادية، كما صنع فرعون، وفصلت الآيات..

وفي سؤال قدسي استنكاري "ألا يتقون"؟! ما الذي يحول بينهم وبين التقوى والخشية والوجل من رب الأرض والسموات؟! كيف تُسول لهم أنفسهم الظلم والطغيان في أرض الله، وهو جَلَّجَلَالُهُ مطلع عليهم، وإليه يرجعون، وعنده محاسبون؟! أفلا ينظرون إلى ألاء نعمة الله لهم، فماذا عليهم لو آمنوا واتقوا؟! لكنها - في النهاية - هداية الله، لمن أخلص قلبه لله، وابتغى رضاه، واتبع هداه ! فالتقوى هي مفتاح الهداية، وهي كذلك مفتاح مواجهة القوم الظالمين.

| | |

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

ويستشعر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هول وطبيعة هذه المواجهة، فهي ليست نزهة عابرة، ولا خطبة عصماء، ولا كلمة يُلقيها ويمضي، بل مواجهة واقعية شاملة لواقع الطغيان والظلم.. في بيئة فرعونية قاسية لا تحرم، وهو يتخوف من تكذيب القوم - كما يتوقع - فهذه الدعوة لن تأت على هواهم، ويتخوف من أن يضيق صدره عند تكذيب القوم، والسخرية منه ومن دعوته؛ فيطلب العون من الله بأن يرسل معه أخاه هارون، إضافة إلى أنه قتل بالخطأ منهم نفساً.. كل هذه الأفكار دارت في خلد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يتلقى أمر المواجهة مع الظلم والفراعنة..

والأمر ليس بالهين، فإننا إذ نقرأ القصة الآن، ونعلم انتصار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهلاك فرعون.. ليس كمن يتلقى الأمر أول مرة، ولا يدري نهاية الأمر، وهذا التفصيل للتخوف في هذه الآيات؛ يريد أن يُؤنس صدور المؤمنين، بما يختلج في صدورهم من تخوفات عند مواجهة قوة الظالمين.. وأن تطمئن صدورهم وتنشرح، فإنه أمر الله، وإنهم في معية الله، وما للظالمين من أنصار: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر (36)].

ويأتيه الجواب من رب العالمين:

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

كلا.. لا تخاف ولا تحزن، ولا يضيق صدرك، فإن معية الله معكما أنت يا موسى وأخيك هارون، ومعكما آياتنا، واذهب إلى رأس الكفر، وعمود النظام، وقمة الهرم عندهم، لتخبراه بالحقيقة الكلية القائم عليها هذا الوجود، وهي: ربوبية الله جَلَّ جَلَالُهُ على كل العالمين، وهما مرسلان من عند رب العالمين.. والمطلوب: إرسال بني إسرائيل وتحريرهم من ذل فرعون، واستعباده لهم، فيكف يدعو بني إسرائيل؛ ويجعلهم يمتثلون لأمر الله في شؤون حياتهم كلها، وهم تحت رأس الكفر ونظامه يفتنهم عن دينهم، ويضطهدهم؟! فهو يطلب تحريرهم من هذه القيود والأغلال والآصار.. حتى تنطلق أرواحهم تتلقى نور الله، بغير عقبات ولا فتنة من فرعون وملئه..

ذلك أن الرسالة ليست اعتقاداً بارداً في العقل، ولا شعيرة تؤدى في مكان العبادة فحسب، إنما الرسالة جاءت لتكون هي واقع الحياة البديل عن نظم الفراعنة والطواغيت.. وحتى يتم إقامة الدين، وتحكيم الشرع، وحمل الرسالة، لا بد من هذا التحرر من أسر الطغاة، ومواجهة ظلمهم.

وهي قضية هامة في الدعوة إلى الله.. التي اتخذها البعض سبيلاً للدعة والراحة، والتي اتخذها البعض سبيلاً للعيش والكسب ! والتي اتخذها البعض سبيلاً للشهرة وحشد الأتباع، والتي اتخذها البعض سبيلاً للتحزب وتفرقة الأمة !

فقضية الدعوة إلى الله هي: قضية تغيير واقع الظلم والطغيان إلى واقع الحق والعدل الرباني، هي تحرير الناس حتى يتسنى لهم الاستجابة.. فهي قضية مواجهة في عالم الفكر والإيمان، وقضية مواجهة في عالم الواقع والميدان.. **في عالم الفكر والإيمان**: ببيان كلمة الله في هؤلاء الطغاة بلا مواربة أو محاباة أو مداهنة؛ لتسقط قيمتهم وشرعيتهم في نفوس الناس؛ لتبيان حقيقة الصراع معهم..

وفي عالم الواقع والميدان: بعد استكمال العدة والتربية، هي الجهاد في سبيل الله؛ لمواجهة القوة التي تقف في وجه حقوق الناس وحريتهم، وتحاول استعبادهم، وإفسادهم.

| | |

وكالعادة يخرج فرعون عن القضية الأصلية:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وباستعراض الآيات – في مختلف السور – التي تحدثت عن رد فعل فرعون عند سماعه رسالة الله، نجد في كلها "خروج عن القضية الأصلية" فمرة الاتهام بالسحر، ومرة الإفساد في الأرض، ومرة تبديل الدين، ومرة بالكذب، ومرة بالسؤال عن القرون الأولى... إلخ، وهذه المرة يَمن فرعون عليه بأنه هو الذي رباه، ومكث في قصره سنين – بعدما أخذته امرأة فرعون عندما كان رضيعاً – ويُبكت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه قتل رجل من قوم فرعون – وخرج بعدها موسى من مصر – ثم في النهاية يتهم موسى بالكفر !

وإنه لاتهام عجيب ! كيف لفرعون أن يتهم نبي الله بالكفر ؟!

إنه لا يجد من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ طاعة ولا تسليم ولا انقياد ولا خضوع له؛ لذا فهو من الكافرين.. لكنها في موازين فرعون تهمة جديدة، تضاف إلى قائمة التهم، التي كانت جميعها الغرض منها تحويل قضية الاستسلام لله رب العالمين، إلى أمور فرعية، وتقليب في الماضي.. وعلى كل داعية أن يكون كافراً بالفراعنة والطواغيت؛ فلا طاعة ولا تسليم ولا اتباع ولا خضوع إلا لله رب العالمين.

ويرد عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعترف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بفعلته – القتل الخطأ – ويعترف أنه في هذه الحالة قد أخطأ، وخرج عن فعل الصواب.. ويؤكد على أنه قد خرج من مصر – بعد التآمر على قتله – فوهبه الله العلم والحكمة والرسالة.. ويرد على منّه عليه بالتربية صغيراً، أنه استعبد بني إسرائيل، وقهرهم، وأذلهم !

ونجد في هذ الرد من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دروساً مختلفة:

أولها: عدم تبرير الخطأ، فالخطأ خطئاً.. والصواب صواباً، ولا حاجة للتكلّف والتبرير والالتواء، بل الإقرار والتواضع خير؛ وهو يفتح آفاق النفوس – عند الآخرين – للتواضع أمام أخطائهم، والاعتراف بها، والتوبة منها، لأن عدم الإقرار بالذنب.. يفتح أبواب "الاستكبار" على مصرعيها، وهو من أشد الأمراض خطورة على النفس.

وثانيها: الشعور بنعمة الله، وفضله، ومنته وإحسانه، وفضله.. فشعور النعمة، والامتنان بها، وشكرها.. هي التي تبارك في عطاء الله، وتزيده؛ وهي التي تجعل الإنسان في حالة من التواضع أمام نعم الله، ورد الفضل والعطاء لله وحده لا شريك الله؛ فتحمي الإنسان من الغرور بالعطاء.

وثالثها: إثبات الصحيح من القول، ورد الباطل منه.. فهذا هو العدل في القول والشهادة، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تربى – وهو وليد– في قصر فرعون، لكن فرعون استعبد قومه من بني إسرائيل وقهرهم.

وهكذا نرى الموضوعية والدقة في الطرح.. بعيداً عن تبرير الخطأ أو الاستكبار أو الغرور أو انتقاص حقوق الناس، وعملهم.

ويبدو أن هذا الرد الصادق العادل من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جعل فرعون يتوقف عن "الجدال بالباطل" ليعود إلى القضية الأصلية:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فيأتيه الجواب:

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قضية واحدة لا تتغير: " رسول رب العالمين" "رب السموات والأرض وما بينهما" فهو جَلَّ جَلَالُهُ صاحب المُلك والخلق والأمر.. ومن ثم فهو إله في السماء، وإله في الأرض.. فهو رب العالمين، ومن ثم فله وحده لا شريك له: الطاعة والانقياد والتسليم والخضوع والاتباع؛ ومن ثم فلا فراعنة ولا طواغيت، لا استعباد للبشر، ولا تشريع لهم بغير ما أنزل الله.

وبالطبع يُصدم ويستنكر فرعون هذه الدعوة التي ظن أنها ستصطدم مع مصالحه، وهي كانت له خير، ويحاول أن يحشد الملأ للسخرية وكيل الاتهامات:

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وكأنه يأذن لهم في السخرية والهجوم على دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ !

ويُصر موسى على دعوته لا يتزحزح عنها، فهي قضية الوجود الإنساني كله:

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ونرى هنا أهمية إصرار الدعاة إلى الله في كل جيل على تأكيد البيان، وتأكيد القاعدة الأصلية التي منها ننطلق إلى كل التفريعات والتفصيلات الأخرى، ولا يتزحزح الداعية، ولا يتردد، ولا يخاف، وهو يطرح هذه القضية.. قضية ربوبية الله على خلقه، لا سيما عندما تضطرب مفاهيم الناس في قضية الألوهية والربوبية.. فتؤمن بالله إلهاً يدبر الأمور الكونية، ولا تؤمن به رباً يدبر شؤون حياتهم

ويقرر لهم قاعدة الحلال والحرام ! فتحسب أنه يمكن أن تؤمن بالله إلهاً، وبالقوانين المنافية لشريعة الله رباً وحكماً.. وترضى بذلك وتتابع عليه !

وجلاء هذه القضية ضرورة ملحة لا مفر منها، فمحاولة القفز فوقها، أو وجود شبهات – ولو صغيرة – عند الناس حولها، تعطل مسيرة الدعوة، وتهدر كثير من الطاقات، وتؤخر التمكين، حتى انجلاء هذه الحقيقة بصورة تامة.

فماذا كان الرد من فرعون على هذا البيان؟

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهذه هي تهمة جديدة، فبعد لائحة الاتهام بالسحر، والكذب، والكفر، والإفساد في الأرض، وتبديل الدين... إلخ يضيف إليه "الجنون"، وعند اتهام الداعية بالجنون، يعني أن دعوته اصطدمت كلياً بتصورات الفراعنة والطواغيت، حتى ظنت أن الداعية مجنوناً.. وما هو بمجنون، إنما تصورات الفراعنة وقيمهم وموازينهم هي الباطلة كلياً، والخالصة في الكفر.. فلم تترك مجالاً لدعوة الداعية للالتقاء أو الاقتراب؛ فكان الاصطدام الذي على إثره تم الاتهام بالجنون، كما يفعل الطغاة في كل جيل مع من يدعونهم إلى صراط الله المستقيم.

ونتوقف قليلاً عند مسألة "المُسلّمات العقلية": فالعقل طاقة هائلة معجزة فريدة امتن الله جَلَّجَلَالُهُ بها على الإنسان، ولكن هناك جوانب قصور في هذا العقل.. منها: أنه محدود بحدود الزمان والمكان ووصف اللغة البشرية[1]، وأصل عمله لا يأتي بالأصالة تلقائياً.. إنما يأتي من خلال: (التقليد والتجربة، والملاحظة، والتعلم، والتعليم) وتتكون لديه – من خلال التعليم والتربية – مجموعة من "المسلّمات العقلية" وهي مجموعة من الأفكار أو التصورات التي تدخل مساحة "اللا تفكير" باعتبارها صارت أموراً مستقرة، لا يمكن الاقتراب بها؛ فهي منطقة "الحق المطلق"..

(1) وإن كان العقل يحاول التحرر من هذه القيود بـ "الخيال" ولكنه يظل أيضاً محدوداً، قاصراً، عاجزاً، ويدرك أنه كلما اتسع علمه وخياله، كلما أدرك حقيقة جهله ! فحتى إدراك الجهل بحاجة إلى العلم الواسع !!

وقد كانت قضية ربوبية فرعون على أهل مصر، واستعباده بني إسرائيل.. من المسلّمات العقلية عندهم، ومن الأمور القابعة في منطقة "الحق المطلق"، وعندما أراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تصحيح هذا الخلل.. أُتهم بالجنون؛ لأنه اصطدم بالمسلّمات العقلية لفرعون.

والحق إن الإنسان انطلق في عمارة الأرض، والمضي في ترقية الحياة من خلال اقتحام منطقة المسلّمات العقلية، والبحث عن انطلاقات وتطورات جديدة في عالم المادة؛ فكانت هذه الحضارة التي نراها الآن، ولكنه عندما جعل من الكفر والعصيان والإلحاد والظلم والبغي "مسلّمات عقلية" شقى وضل؛ ولم ينعم بالحضارة التي بناها..

ونعمة الرسالة والرسل هي: البناء الصحيح لمساحة "الحق المطلق" و"المسلّمات الصحيحة"، ثم بعدها ينطلق الإنسان؛ ليقتحم كل جديد، وليكتشف كل إبداع.

| | |

ويُصر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على دعوته للمرة الثالثة لا يتزحزح:

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قضية واحدة هي منذ اللحظة الأولى، وحتى اللحظة الأخيرة: "رسول رب العالمين" "رب السموات والأرض وما بينهما" "رب المشرق والمغرب وما بينهما" كانت في تفصيل، كانت في إجمال، كانت بألوان مختلفة، وصور شتى.. هي في النهاية قضية واحدة، لا بد من حسمها، والانتهاء منها، والاطمئنان إليها، قبل أي خطوة أخرى، فلا توافق، ولا إصلاح، ولا وحدة.. قبل حسم هذه القضية، قضية الاستسلام لله رب العالمين، وقضية الاستسلام لحكمه وشرعه.. بعدها، يمكننا الدخول في التفصيلات، ونحن نقف على قاعدة كلية تتفق وتنسجم مع حقائق الكون الكلية، وتتفق وتنسجم مع فطرة الإنسان، وتضعنا على صراط الله المستقيم، ولكن دون حسم هذه القضية، تبقى المحاولات كلها في الفراغ..

وكثيراً ما تحاول الجاهلية – في كل زمان ومكان – الخروج عن هذه القضية الأصلية؛ لأنها تأنف وتشمئز من ذكر الله وحده لا شريك له: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر (45)].

وتروح الجاهلية – عندما ترى البأس والعزم من المؤمنين – تبحث عن نقاط مشتركة مع أصحاب الدعوة إلى الله، ولا يوجد نقاط مشتركة ابتداء، إنما هي محاولة خبيثة من الجاهلية؛ لنزع الأصالة عن أصحاب الدعوات، وجعلهم في نظر الناس مجرد أصحاب مصالح أو دعاة توافق.. لا فرق بينهم وبين دعاة الجاهلية ! ثم تنقلب الجاهلية عليهم في النهاية بعد أن تكون نزعتهم كل شيء، يحدث كل ذلك عندما يغفل أصحاب الدعوات عن حقيقة الدعوة، والخطوة الأولى والأساسية فيها.

وبعد اتهام فرعون لموسى بالجنون، يأتي التهديد:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولعل فرعون لما رأى أن الألوهية لله تعني الربوبية على خلقه – فأولى مقتضيات الألوهية هي الربوبية المطلقة على الخلق "الحمد لله رب العالمين" – ادعى كبراً وغروراً ألوهيته !! لا سيما وإن في دين الفراعنة الاعتقاد بأنهم أبناء الآلهة ! وإن فيهم من الألوهية ما يقتضي الربوبية على الناس ! والادعاء بالألوهية من البشر، هو مجرد ادعاء لا يستطيعه أحد، ولن يقدر عليه أحد، فمن يدبر الكون كله سوى الله؟ ومن ذا الذي يستطع أن يُغير في سنن هذا الكون سوى الله جَلَّجَلَالُهُ؟ ومن يستطع أن يمنع شروق الشمس أو غروبها أو يدعي أن له دور في ذلك؟ فكل هذه دعوات باطلة عقلاً، أما الادعاء بالربوبية على البشر.. فالفراعنة تمارسه عندما تُخضع الناس إلى أهوائها؛ فتُحل لهم ما تشاء وتُحرم عليهم ما تشاء من دون شريعة من الله؛ فهذه عبادة للفراعنة، مثلما حكى القرآن عن الأحبار والرهبان: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة (31)].

وأمام دعوة الحق لا يملك الفراعنة شيئاً سوى التهم الباطلة، والبطش بالدعاة وسجنهم.. ولكن الله من ورائهم محيط، ولدعوته ناصر، ولكنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُمهلهم؛ لينظر كيف تعملون.

ويعرض موسى الإتيان بآية معجزة مادية، بعدما تم تكذيب الدعوة التي هي أقوى من المعجزة المادية:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ويقبل فرعون، ويُفترض في قبوله هذا الإيمان والتصديق، إذا وفى موسى وعده:

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فتأتي الآيات البيّنات:

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فهل آمن فرعون؟ وهل صدق؟ وهل أدرك وانتبه لدعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كلا.. لم يؤمن لأنه لم يكن يبحث عن الإيمان ابتداء، بل كان يبحث عن سبيل للتكذيب، فهو منذ البداية يتهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالكفر، والجنون لما سمع رسالة الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولما رأى المعجزة المادية اتهمه بالسحر..

ويحاول فرعون – عندما شعر بالخطر وداهمته الدعوة وصدقها وحقيقتها – أن ينقل شعوره بالخطر للملأ والحاشية وأصحاب المصالح في نظام فرعون؛ ويحشدهم ويعبأهم ضد موسى ودعوته، ويخرج عن القضية الأصلية إلى قضية أن هناك مؤامرة عليهم، وعلى مُلكهم، ومصالحهم، تستهدف سلطانهم ومتاعهم..

والآن، في هذه الأزمة نسمع "فماذا تأمرون؟" يا لتواضع فرعون ! يستأمر الملأ ! وهو منذ قليل يقول: "لئن اتخذت إلهاً غيري" ويقول في آية أخرى: "ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" ولكن عندما نسمع هذه اللغة "فماذا تأمرون؟" من الفراعنة، نعرف أن الخطر يتهددهم،

وأنهم يريدون حالة من الحشد، ومن التوافق، والتشاور؛ ليتشارك الجميع في المسؤولية والجريمة، فسقوط فرعون يعني سقوط الملأ من حوله.

ويكيدون:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

صدّق الملأ وصف فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه "ساحر عليم" ولم يكن هناك تشاور ولا أمر حول مراجعة هذا الوصف أحقيقة هو، أم ادعاء من فرعون ؟ ولكن فرعون لا يسمح بالتشاور والأمر في هذه النقطة، إنما يريد التشاور والتوافق في كيفية الفتك والحرب لعدوه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يجب أن ينخدع أحد في دعوة الفراعنة للتشاور والأمر.. فهم لا يجتمعون إلا للفتك والقتل، وليس للإصلاح، وتقليب النظر، وإعادة التقييم.. إقامة للحق، ورداً للظلم.

والملأ يستجيب ويصدق فرعون، فيجمعون السحرة العلماء من كل مدينة ! وإن الله مُوهن كيد الكافرين.

وتبدأ الدعاية عملها في حشد الناس، ورسم انفعالاتها، وهندسة ردود أفعالها.. بصورة تجعلهم كأنهم هم أصحاب الاختيار:

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

فجعل شرط اجتماع الناس لمشاهدة هذه المباراة هو اتباع السحرة.. وتشجيع السحرة، ولم تقل لهم هذه الدعاية الخبيثة: لعلنا نتبع الحق، أو نبصر الحقيقة، أو نرى صدق موسى إن كان رسولاً من عند الله !

وهكذا إعلام الجاهلية في كل جيل، يحشد الناس لاتباع الباطل، وتزينه في قلوب الناس، وجعل الناس تشعر أنها هي من "اختارت" بمحض إرادتها الباطل، بينما هو مفروض عليهم بالحديد والنار، وما الدعاية إلا لتجميل الوجه القبيح للجاهلية، وجعلها في صورة من الحريات والاختيارات؛ حتى لا يتململ العبيد، أو يشعرون برغبة في التمرد، لا سيما عندما تلوح دعوات الحق في الأفق، فتعمل

هذه الدعاية على رسم انفعالات الناس، وتوجيه اختياراتها على الشيء الواقع بالفعل، والمفروض عليهم بالقوة !

ويأتي السحرة فرعون يطلبون المال، فزادهم بالقرب، وجعلهم من ملئه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

ويختصر السياق هنا ما سبق تفصيله في آيات سابقة:

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فتنتفض فطرة السحرة، وتتفتح قلوبهم لنور الله ورسالته:

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ونرى هنا سرعة الاستجابة للحق، والتسليم له في كلمة "أُلقي" قبل الوقوع تحت تأثير فرعون سواء بالترغيب أو الترهيب، وسرعة الاستجابة للحق والتسليم له بلا استكبار أو عناد أو غرور هو لا شك سبيل نجاة، فكثير من الناس تأتيها دعوة الحق لا ريب فيها، وهم بها مقتنعون.. إلا أنهم يتكاسلون أو يستكبرون أو يترددون، أو يبحثون عن من يرد لهم دعوة الحق بلحن القول ! أما النفوس الطائعة المهتدية، هي التي تفرح برؤية الحق، وتستسلم له، وترى فيه السعادة لا الشقاء، وترى فيه النجاة لا التكليف.

ويغضب فرعون لثورة الإيمان والفطرة في قلوب السحرة، ويستشعر خطرها وتأثيرها عليه، فقد سقطت عزته، وانقلب صاغراً:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يا لشقاء فرعون ! كان يحسب أن له سلطان على القلوب ! وكان يحسب أن الإيمان يحتاج إلى إذنه.. والجاهلية عندما ترى دعوة الإيمان يشتد عودها، وتنتصر في ميادين مختلفة، فتعمل على الإحاطة والتحكم في دعوة الإيمان، وتريد له أن ينضوي تحت رايتها، وهي - فضلاً منها - ستسمح له ببعض الوجود، بشرط احترام الجاهلية، وأخذ الإذن منها، وستسمح الجاهلية ببعض الشعائر والعبادات، فهي تحترمها ! أما فيما يخص صميم حياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية فلا بد للإيمان أن يبقى بعيداً، أو يحاول جاهداً أن يحصل على الأغلبية حتى يتسنى له "مناقشة" بعضاً من هذه الأمور، ثم ينقلبون عليه في النهاية ! ودعوة الإيمان الحقة لا تأخذ الإذن من الجاهلية، ولا تشاركها، ولا تنضوي تحت رايتها، بل تمحق الباطل؛ ليكون الدين كله لله.

ولذا غضب فرعون عندما تجاوزه السحرة؛ وقفزوا بإيمانهم فوق مُلكه ومتاعه وملئه؛ ليشاهدوا حقيقة الإيمان في القلوب، وطعم الحرية في الأرواح، وإنهم بإيمانهم أصبحوا ليسوا بحاجة إلى فرعون، وإذنه، وماله، وقربه.. فالله جَلَّجَلَالُهُ يكفيهم كل ذلك..

وما تهديد فرعون لهم بشيء، أمام حلاوة الإيمان !

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لا ضير حقاً، فكلنا إلى ربنا منقلبون راجعون.. والضير الحقيقي أن نرجع إليه وهو غير راضٍ عنا - والعياذ بالله - والضير أن نأتيه جَلَّجَلَالُهُ بذنوب وخطايا وظلم وبغي وطغيان.. وهذا ما يجب أن يشغل بال الإنسان، حقيقة الرجعى إلى الله ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم (42)]. ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق (8)]..

وعندما يشتعل نور الإيمان في القلوب، لا نرى الجهد في مواجهة الكبر والغرور والتواء النفس، بل نرى الجهد والوجل والخشية في طلب المغفرة من الله، والتقرب إليه وتقواه، وشتان بين قلبين، قلب طُبع عليه باستكباره، وقلب مُرهف لكل خطأ يرجو المغفرة والرحمة.. وأولئك هم المهتدون.

ويسكت السياق عن مصير هؤلاء السحرة ونهايتهم الدنيوية.. ويكتفي بالنهاية الأخروية السعيدة لهم، وبانتصارهم على فرعون بإيمانهم.. ويا لها من سعادة عندما يموت الإنسان وهو مُسلم قلبه وروحه ونفسه لله، يا لها من سعادة، ويا له من فوز.

| | |

ويستعد موسى للخروج بقومه:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسيخرج موسى بقومه ليلاً، وقوله "بعبادي" تشريفاً لهم وتكريماً، وفرعون سيتبعهم، فلا يخاف ولا يجزع قومه، والآية تهيئة إيمانية لقوم موسى عندما يشاهدون البحر أمامهم، وفرعون خلفهم.. فلا يهتز إيمانهم.

ونرى رحمة الله جَلَّجَلَالُهُ في كل حادثة تحتاج إلى تهيئة في النفوس فيستبق إليها، وهذا الكرم الرباني لا بد أن يكون حاضراً في ذهن كل داعية، وأن يراعي أحوال الناس، وخلجات نفوسهم، ويستبق ما يدور في عقولهم، وما عليه تصوراتهم؛ حتى ينقلهم بثبات ورفق في درجات الإيمان.

ويكيد فرعون، وما كيده إلا في ضلال:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولكن هذه المرة لا يُوجد وقت لترف "ماذا تأمرون؟" الخطر داهم، وهو يحيط به من كل جانب، هكذا صور له الشيطان - رغم أنها رسالة النجاة، لو آمن.. لنال سعادة الدنيا، وفوز الآخرة - فحشر الناس - كما حشر السحرة من قبل - وتوجه إليهم بالخطاب وفيه: تهوين أمر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه.. فهم في نظره "شرذمة قليلون"! وهم عند الله خير من فرعون وملئه وجنده وما حشره من الناس، فالعبرة بالإيمان لا بالمتاع، والنظرة إلى ما في القلوب لا إلى عدد الرؤوس. وإن كانوا هم بهذه القلة، لماذا حشر فرعون كل هذه الناس من حوله؟! لأنه يشعر بقوة هذه القلة التي انتصرت على أدوات الترغيب والترهيب لديه؛ فجعلته في حالة من "الغيظ" فماذا يملك بعد الآن ؟!

والجاهلية تشعر بالحنق والغيظ عندما ينتصر أهل الإيمان ويستعلون على أدوات الترغيب والترهيب لديها.. وتشعر بالإفلاس والإهانة، عندما ينظر أهل الإيمان لأدوات البطش والمتاع نظرة استعلاء واستهزاء؛ فتروح تضرب كالمجنون في أهل الإيمان، ولا يُشفى غيظها !

ولا يشعر فرعون بالأمن رغم جنده وملئه وما حشره من الناس، فهو حاذر لما قد يقع من الشر، ولن ينفعه كيده، فقدر الله نافذ:

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

فالله هو الذي أدخلهم فيها أول مرة، وهو الذي أخرجهم منها بعدما كفروا وكذبوا.. وأورثها للمستضعفين؛ لينظر كيف يعملون؟

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وخرج فرعون ليلقى مصير المكذبين:

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

والتقى الجمعان:

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وشعر قوم موسى بالخوف والهلاك، وتسلل شعور الهزيمة إلى نفوسهم، والإنسان قد يؤمن في لحظات الرخاء، ويُصدّق وعد الله، ولكن عدم التلاحم الواقعي، وزلزلة القلوب، يحتاج إلى دفعة إيمانية تُذكره وتثبته، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

وهذا هو الإيمان، واستشعار معية الله، واليقين بصدق وعده، في كل وقت وحين:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فبعد استفراغ الوسع، والتوكل على الله، واليقين فيما عنده.. جاء نصر الله وفرجه؛ فانفلق البحر لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليسير فيه، ويعبر منه، وانخرقت السُنة بأمر الله، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مطلق الإرادة والمشيئة، وقرّب فرعون وجنده من موسى ليعبروا مثله البحر؛ ثم ينجي الله موسى ومن معه أجمعين – فكل من كان مع موسى نجى، وهنا ندرك أهمية الانضواء تحت راية الإيمان وحدها – وغرق فرعون وجنده، وتركوا الزروع والبساتين:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الدخان]

والمؤمن لا ينتظر انخراق السُنة له، فليس هذا من شأنه، ولا يدخل في مجال تفكيره، إنما مجال عمله وتفكيره في استكمال سنن النصر والتمكين، واستفراغ الوسع، وحسن التوكل على الله، واليقين في رحمته وفضله، ثم بعد ذلك يفعل الله ما يشاء.

| | |

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

آية عظيمة ودرس بليغ للمؤمنين في كل جيل، ودرس كذلك للفراعنة والطغاة إن كان لهم قلب يسمع، أو أُذن تعقل.. وما كان أكثر الطغاة وجندهم وملئهم بمؤمنين، فالكثرة ليست دليلاً على صحة المسلك، إنما صحة الطريق، والصراط المستقيم هو: في الاستسلام لله رب العالمين، واتباع النور الإلهي، وابتغاء رضوان الله.. وإن الله لعزيز غني عن إيمان المؤمنين وعن إيمان الفراعنة.. ولكن رحمة منه وفضلاً يُرسل الرسل، ويُنزل الكتب، ويَهدي المؤمنين إليه صراطاً مستقيما، ويُعذب ويُهلك من استنكف واستكبر عن عبادته وأفسد في أرضه، فسبحان الله الرحمن الرحيم.

وهكذا تنتهي قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون في هذه السورة – سورة الشعراء – لتكشف عن دروس جديدة، ولقد كان يُخيل إليّ التكرار في سور الأعراف، والقصص، وطه.. أنه قد يكفي سورة

واحدة وردت فيها القصة ! ولكن اكتشفتُ أن في كل سورة دروس جديدة، ومعان مختلفة، ونور ساطع يحتاج إلى تأمل وجهد لتشرّبه وتدبره.. وإلى شفافية روحية لرؤية كنوز القرآن.

والقرآن نور قوي.. وقول ثقيل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[المزّمّل (5)]. كله حكمة، وعلم، وبيان.. وكل آية فيه، لها نورها وبريقها الخاص، وليس هو التكرار.. بل أنوار بأشكال وألوان شتى، فاللهم افتح علينا من أنوار رحمتك وفضلك وعلمك.

***



يقول الله تعالى في سورة النمل:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

تستعرض سورة النمل إجمالاً ما تم تفصيله في آيات سابقة، وتؤكد على: استكبار فرعون من ناحية، وفسوق وعصيان قومه - الجماهير - من ناحية أخرى، وخروجهم عن الحق والصراط المستقيم؛ ثم تكذيبهم جميعاً بالآيات.. وجحودهم بها، وهم في قرارة أنفسهم مستيقنون ومتأكدون من صحة الآيات، ولكنه الظلم والعلو.. **الظلم**: ظلمهم أنفسهم بانحرافهم عن سبيل الله، وبانغماسهم في الفسوق، وتقبله، وعدم مقاومته، وظلمهم لما جاءتهم آية من عند الله واضحة تامة مبصرة، فكذبوه بها. **والعلو**: وهو استكبار النفس، وعزتها بالإثم، وعدم تواضعها للحق.. فكان الظلم والعلو الذي أدى إلى تكذيب الآيات هو مصير المفسدين: مصير فرعون المُستكبر، وقومه الفاسقين.

ونتوقف هنا عند مسألة الكِبر، ولماذا وكيف يجحد الإنسان الآيات المبصرة، وهو يستيقن بها في قرارة نفسه، ولكنه لا يُظهر إلا الظلم والعلو والاستكبار؟!

إن للنفس البشرية قدرة عجيبة على التهرب من الاعتراف بالحق، والالتواء.. والمكابرة عن الاعتراف بالذنب؛ لأنها تحتقر الحق وأهله، وهذا هو التعريف النبوي للكِبر: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " **لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** "، **قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ**

بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ" [صحيح مسلم/ 92]. بطر الحق: رد الحق وكراهته، وغمط الناس: ازدراءهم، واحتقارهم، والتعالي عليهم.

وهذا هو "منطق إبليس وحجته" فالفرق بين خطيئة آدم، وخطيئة إبليس.. أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ اعترف بذنبه وسأل ربه المغفرة، وإبليس تكبر عن الاعتراف بذنبه، وألقى باللوم على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف: 16]. وسأل ربه أن يُمهله إلى يوم الدين !

وكان هذا هو ذنب البشرية الأول، وتجربة الإنسان وإبليس مع الذنب.

الإنسان: اعترف بذنبه، وبمسؤوليته عن هذا الذنب، وباستجابته لغواية إبليس.. ثم أناب ورجع إلى ربه يضع عنده جُرم يديه، وكل ذنوبه، وهو يخجل منها، ويتحسر على التفريط في جنب ربه، ويتقدم إليه بالمناجاة وطلب المغفرة والرحمة والرأفة؛ فيستجيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو الغفور الرحيم.. يغفر الذنوب، ويعفو عن السيئات، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الرحيم الكريم يُبدل الذنوب حسنات ! فيا له من رب كريم.

إبليس: وقع في ذنب "الاستكبار" وهو يعلم يقيناً ذنبه وحق ربه عليه، ولكنه لم يلتفت لخطئه ولا لجريمته، بل ظل في هذا الاستكبار مصراً عليه، لم يعترف بذنبه، ولا بخطئه، بل تبجح به.. بل إنه يلقي باللوم والمسؤولية على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعتبر أنه سبحانه! هو الذي أغواه ! فلم يعتذر إبليس ولم يطلب الرحمة، بل طلب الإمهال إلى يوم الدين لينتقم من بني آدم ! – وقد أُمهل بإرادة الله؛ ليَبتلي اللهُ سبحانه الإنسان في هذه الدنيا، وجعل كيد الشيطان ضعيفا – آدم الذي ظن إبليس أنه سبب لعنته، بينما سبب اللعنة هو ما بنفس إبليس من استكبار وعصيان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان سينكشف ما بنفس إبليس سواء في حالة رفض السجود لآدم أو غيرها؛ فاستحق لعنات الله جَلَّ جَلَالُهُ ولعنات المؤمنين إلى يوم الدين، ثم هو في النهاية في الجحيم.

فكان الاعتراف بالذنب، وتحمّل المسؤولية، واعتراف النفس بخطئها وجهلها وظلمها هو: مفرق طريق في حياة البشرية كلها، ونحن فيها – في كل الأزمان – أمام اختيارين لا ثالث لهما: إما **سُنة آدم**

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. الاعتراف وطلب التوبة والالتجاء إلى الله. وإما **سُنة إبليس** اللعين: التبرير والتكبر وإلقاء التبعة واللوم على آخرين.

ولم يكن ذنب البشرية الثاني من ذلك ببعيد ! ها هو القرآن يحكي قصة ابني آدم..

قربا ابني آدم قرباناً لله تعالى، فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر.

فهل عزم الآخر (الذي لم يُتقبل منه) على:

- مراجعة نيته وسريرته نحو ربه.
- مراجعة القربان أيكون فيه نقص أو عيب.
- تصحيح نيته وعمله وأن يتحرى الإخلاص والصواب.
- تنقية قلبه من كل حقد أو حسد أو غل يمنع قبول العمل.
- معالجة أمراض نفسه، ويفتش بكل دقة وصبر عن العيب.

كلا.. لم يعزم على شيء من ذلك، بل عزم على الانتقام ممن أظهر عيوب نفسه، عزم على إلغاء وجود ذاك الذي أظهر نفسه وهو ناقصة معيبة، بينما هي ترى في نفسها الكمال والعصمة، وربما الشعور بالألوهية ! فلما رُفض قربانها.. غضبت وانفعلت وتولد الحقد والبغض والغل بدلاً عن الخشوع والتقوى والإنابة ! وراحت تمضي في "سُنة إبليس": الانتقام ممن أظهر عيوبها ونقصها، فقال لأخيه: لأقتلنك !

وأخيه حريص عليه ويخشى عليه من الهلاك، فأوضح له طريق القبول بجملة قصيرة هي منهج حياة: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّه مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : 27].

ولكن النفس المجروحة المتكبرة العنيدة، التي تُصر على الذنب، وتُصر على تمجيد ذاتها، وتطهير ساحتها.. وهي الملوثة بأقبح الذنوب وهو "الكبر" لم تستمع إلى النصيحة، وكيف تستقبل المعرفة وهي هكذا منتفشة بالباطل ؟!

لقد كان الطريق لها مفتوحاً للعمل في مجال "التقوى" وتصحيح الخطأ والتفتيش في النفس، هل أصاب العمل شيء في الإخلاص أو في الصواب، لقد كان يكفي المحاولة الثانية أو الثالثة أو الرابعة.. محاولة مستمرة حتى يتقبل الله العمل، والإصرار على تقديم قربان آخر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولحظة أن يرى الله صدق القلوب وطاهرتها، وحرصها على مرضاة الله؛ يتقبل الله جَلَّجَلَالُهُ العمل.. بل ويضاعفه أضعافاً مضاعفة، فهو الجواد الكريم الحليم الرحيم الودود الغفور الرحيم، وهو في نفس الوقت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غني عن العالمين.

ولكن.. لم تر النفس طريق التقوى، وثقل عليها أن تراجع نفسها.. ولكن سَهُل عليها قتل أخيها !

هذه التجربة مع الذنوب هي تجربة النفس البشرية منذ خلقها الله، وهي نفس الطبيعة البشرية لم تتغير على مر الأزمان، ومن اتبع سُنة أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد نجى، ومن اتبع سُنة إبليس اللعين فقد هلك.

وعرض القرآن الكريم لهذه الحوادث والتجارب؛ ليكشف لنا عن طبيعة النفس الإنسانية وأسرارها؛ وليُبين لنا طريق النجاة، وليكون ضياء ونوراً يكشف لنا ظلمة النفس ودروبها وأغوارها.

فجحود الآيات من المستكبرين ظاهراً.. واستعلان الكبر والمعاندة والتكذيب، وفي نفس الوقت اليقين بصحتها في قرارة نفوسهم هو: الظلم والعلو والاستكبار بغير الحق، ولكنه ظلم النفس لنفسها، ومكرها بنفسها، وإهلاكها لنفسها..

لقد كانت فرصة عظيمة للإيمان والنجاة، ولكن النفوس المستكبرة العنيدة ردت هذه الفرصة، وتولت عنها؛ فأهلكت أنفسها ومن تبعها.

وإننا إذ نحوم حول بواعث النفوس المستكبرة.. وتركها الهداية والإيمان، فإنا نجد أنها كانت تريد أن تصبح إلهاً – أو شيئاً من صفات الإله - لا يُسأل عما يفعل، ولا يقترف ذنباً.. فضلاً عن طلب المغفرة! ويظل مقدساً مستعلياً عن الاستماع لحق أو الاستجابة لأمر !!

ولا نجد تفسيراً لقبول النفس للحق واتباعه إلا هداية الله لهذه النفوس وفضله ورحمته، فبدون هذه الهداية تَهلك النفس، والله لا يهدي القوم الفاسقين: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النّور (21)]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء (83)]. فاللهم لك الحمد، ولك الشكر.

***



يقول الله تعالى في سورة القصص:

﴿ طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٤ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝١٩ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّـهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

في سورة القصص استعراضاً لقصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من لحظة ميلاده حتى لقاء الوادي المقدس وكلام ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، والتفضل عليه بهذا التكريم الفريد ! وهذه السورة تتلو على النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حلقة من حلقات قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون.. وهو قول حق من إله حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فيأخذه المؤمن مطمئناً لمصدره وصدقه، وعبرته.. فلا شك ولا ريب ولا تأويل باطل فهو الحق الخالص، وهو للذين آمنوا، وأسلموا قلوبهم لله، واتبعوا النور الذي أنزل إليهم، ولن ينتفع به من يجحد ويستكبر ويعاند، ويتبع هواه بغير هدى من الله.. فهذه آيات الكتاب المُبين في معناه، وفي مقاصده، وفي حقه، وفي عدله.

وفي هذا النبأ: يعلو في الأرض بغير الحق أحد مخلوقات الله؛ فقد خان أمانة الاختيار والإرادة، وخان أمانة اتباع الصراط المستقيم، فاتبع هواه والشيطان؛ فصار في صورة وحشية أضل وأقل وأحقر من الحيوان، اغتر بالقوة، ونسي الله القوي المتين، فأنساه نفسه، فظلمها، فاستضعف أهلها، وأعمل فيهم القتل، والقهر.. خشية أن يأتي من يأخذ ملكه، فكان بذلك – وغيره – من الطغاة، من المفسدين في الأرض.. سواء "الإفساد المعنوي" باستضعاف الناس وإذلالاهم، وإفساد فطرهم، والحيلولة بينهم وبين الله ودينه ودعوته ورسالته، وسواء "الإفساد المادي" باستباحة القتل واستعباد الناس..

ولكن القدرة الإلهية ذات المشيئة المطلقة، والإرادة المطلقة.. لها أمر آخر، إنها:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾

إنها تريد التفضل والمنة على أولئك الذين استُضعفوا في الأرض ! أنى هذا ؟ وكيف تنقلب الصورة الواقعية بهذا الحال؟ كيف سيتحول المستضعفون، ومن استعبدهم فرعون إلى ورثة للأرض.. بل الأئمة فيها ؟!

إنها القدرة الإلهية التي لا يقف أمام إرادتها حاجز أو مانع، إنها الإرادة الحرة لملك الملوك، وخالق الخلق، ولو تأملنا قليلاً لزال عنا العجب – وهذا العجب مستمر في كل جيل يواجه فرعون – وإذا

كانت السورة هنا تكشف لنا عن الحلقة النهائية من صراع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون، ونمضي مطمئنين إلى نهاية السورة، ونحن نعرف النهاية بانتصار الحق وأهله، فإن مواجهة الفراعنة والطواغيت في الصورة الحية الواقعية – لا في سورة القصص – تجعل المؤمن في حالة من الخشية والخوف والاضطراب والقلق، وهذه الآيات هي لطمئنة المؤمن؛ ولتسكب في قلبه اليقين بأنه هو وراث هذه الأرض.. كما قال تعالى في وعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النّور (55). ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر (51)].

إذن فهذه قضية منتهية على المؤمن أن يُطمئن باله، ويستقر عقله نحوها، ولكن عليه أن يكون في يقظة دائمة في معركته مع الفراعنة والطواغيت، ويحذر مكرهم وخداعهم، وسواء أدرك المؤمن لحظة التمكين أو قدّرها الله في غير جيله، فعين المؤمن وقلبه على موطن "الابتلاء" وحقيقة الامتحان.. ويحذر الفراعنة وجندهم، فمهما انتفشت قوتهم، ومهما تجمل وتزين باطلهم، فسيظل هو الباطل الذي سيمحقه الله: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس (82)]. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء (18)].

ويجب على المؤمن أن يستجمع كل خوفه.. ليكون خوفه من الله الكريم الحنان المنان واسع الفضل والمن والعطاء، ولا يخش عبيده لا سيما العبيد التي تستكبر في الأرض بغير الحق، ولا يخاف جند الفراعنة، فسيرون – ولو بعد حين – ما يحذرونه من العذاب والنقمة والهلاك.

ومتى استجمع المؤمن هذا الإيمان في قلبه، ومتى تحرر من الخوف من الفراعنة وجندهم، كان له الأمن كالذي وجده أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام (81، 82)]. ومتى استقام

باطن المؤمن، استقام ظاهره، واستعد للمواجهة في ميدان الإيمان، وفي ميدان المواجهة والجهاد، وذاك زاد المؤمن.

ولكن كيف كان التدبير الإلهي لهلاك فرعون ؟

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ

عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّـهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وسبحان الله.. ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[يوسف (100)]. رضيع يُلقى في البحر، فيكون هو سبب هلاك فرعون ! يا الله ! سبحانك، وإنها لسخرية من فرعون وهامان وجيوشهما وملكهم، إنها صورة تريد احتقار فرعون، واحتقار كل مستكبر في الأرض، وتُبشره بالهلاك، ولو بأوهن الأسباب، وأبعدها عن العقل، بل واستحالة تصورها.

ونرى يد القدرة الإلهية، وهي تتفضل على هذا الإنسان، وهي تدبر أمره في كل لحظة، وفي كل حين لا غنى للإنسان عن الله طرفة عين، فكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ"**[المستدرك على الصحيحين/(1: 545)] وتكشف هذه الحلقة من قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حسن التوكل على الله، وصدق اللجوء إليه في كل حين، وإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الأمان، وهو شاطئ السكينة والراحة والاطمئنان، فلا يتزعزع قلب المسلم عند رؤية الصعاب، والأهوال، فكلها بيد الله، وكلها أمرها عند الله، وكلها تحت إرادة الله..

فلا يجزع، ولا ييأس؛ فيفقد رصيده من الإيمان، فذلك هو الخسران، ومن ذلك يخاف المؤمن: ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف (87)].

وإن تدبير الله، وقدره، فوق تصور البشر.. فالإنسان محدود القدرة والتصور، محدود بالزمان والمكان وباللغة المنطوقة وحدود تعبيراتها، جاهل بالغيب، يقيس بـ "اللحظة الحاضرة" الآنية، ولكن الله لا يحده زمان أو مكان، ولا تستطيع لغة بشرية أن تحصر حكمته وصفاته وقدرته !! وهو جَلَّجَلَالُهُ فوق الزمان والمكان، يدبر للمؤمن الخير، ولكن قد يعجز المؤمن عن رؤية القدر كاملاً، بل قد يشاهد ما يحسبه ألماً، فيظن أن هذا كل قدره، ولا يتصور أن هذا مجرد لحظة على الطريق لابد فيها من كبد وكد وتعب، والله ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان (2)]. ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر (49)]. كل شيء.. يا لها من كلمة يعجز العقل مهما سبح بخياله أن يتصورها، كل شيء مخلوق بقدر، ولنا أن نتصور ما تحويه طبيعة هذا القدر: من الحكمة والقدرة والإحاطة والرحمة والمشيئة، وما يحويه القدر من دقة ولطف وجمال وحجم وزمان ومكان، ذلك القدر الذي نتصوره من بدأ الخليقة إلى ما لا نهاية، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُقدر كل ذلك بأمره، وبعلمه، ولا يُعجزه شيء، ولا يرهقه شيء.. سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، جل شأنه، جَلَّجَلَالُهُ !

وما أعظمها من نعمة.. نعمة الاستسلام لله رب العالمين، ونعمة الرضى بقضائه وقدره، ونعمة التوكل عليه، والركون إليه، والخضوع بين يديه، ونعمة الكد والجهد اتباعاً لأمره، وخلافة لأرضه، ثم يمضي الإنسان مطمئناً للجزاء، راضياً بالعطاء في الدنيا والآخرة.. وتلك هي الحياة الطيبة، وتلك هي الحرية الكاملة.

وإذ تُفصّل – سورة القصص – قصة موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ منذ لحظة ميلاده حتى لقاء ربه، إنما هي لتكشف للمؤمنين عن عظمة التدبير الإلهي لعباده، ورحمته بهم، وتكشف تفصيلات القدر، ولو توقفنا عند حلقة من حلقات القدر منفردة – كلحظة إلقاء رضيع في البحر – لتصورها العقل في صورة من التهويل والجزع والهلع والقنوط، ولكن عندما تكتمل حلقات القدر – ولا يستعجل المؤمن اكتمالها – سيرى الرحمة والحكمة والعدل والفضل والمنة؛ فلا يجزع المؤمن ولا يقنط عندما يشاهد حلقة مؤلمة من القدر، هي فقط مقدمة للخير بإذن الله.

فالله الذي خلق الإنسان هو به رحيم، وله مُكرّم.. وللمؤمنين مُحب، ودود غفور رحيم، فأنى ينصرف الإنسان عن مثل هذا الإله العظيم، ويهتز إيمانه إن رأى حلقة مؤلمة من حلقات القدر؟!

ويكبر موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو مصنوع على عين الله؛ لينهض بالمهمة الكبرى.. مهمة الرسالة، ومواجهة الفراعنة.. وكل مرحلة من حياة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان لها غاية، ودرساً يصقل شخصيته، فمثلاً: عندما وقع الاقتتال والشجار بين رجل من شيعته من بني إسرائيل، ورجل من "عدوه" من قوم فرعون، فانتصر موسى لشيعته.. فقتل عدوه خطئاً ! ورغم أنه عدو.. إلا أن هذا القتل الخطأ كان من عمل الشيطان ! واستغفر موسى ربه، وأقر بذنبه، وعندما تكرر الموقف مرة ثانية.. كان موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قد تعلم الدرس، وضبط انفعالاته هذه المرة أن ينتصر للظالمين – ولو كانوا من شيعته – وألا يعتد على أحد – بغير وجه حق – حتى ولو كان من عدوه.

ثم يخرج من مصر بعد التآمر على قتله؛ ليواجه درساً جديداً يؤهله لمهمته.. وقدر الله يمضي بالخير له – ولكل مؤمن – وتكشف الآيات عن استسلام قلب النبي الكريم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لربه، وهو يرتكن إلى الجدار ويقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وهذا الاستسلام لله، هو ما يهدف إليه التصور الإسلامي من الناحية الكلية الشاملة، فإن عطاء الله واسع، غير ممنوع.. ولكن القضية في الإيمان هي: خلوص القلب لله في الدعاء والعبادة والمعاملة والعمل والجهاد، ومتى تحقق هذا الإخلاص ونجح المسلم في هذه الحالة الإيمانية، كانت له الحياة الطيبة.

وقد ورد في سورة الكهف قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع العبد الصالح الذي أتاه الله رحمة من عنده وعَلّمه شيئاً من علمه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ – هذا الذي امتن الله عليه بشيء من خفايا أقدار الله – ولم يفعل شيئاً منها إلا بأمر الله؛ ليتعلم موسى ويشاهد ومضة من ومضات الحكمة الإلهية؛ وهي تجعل من وراء خرق السفينة نجاة لأصحابها! ومن مقتل الغلام الشقي نجاة للأبوين واستبداله بخير منه! ومن بناء الجدار بدون مقابل رحمة لليتيمين!؛ فيصبح هذا الدرس عنواناً لحسن التوكل على الله، وللبحث عن مواطن الخير مهما وقع من آلام، وطلب الرحمة مهما كانت العذابات.

وأما وصول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى "الوادي المقدس" وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فذاك موقف لا تستطيع الحروف والكلمات مهما وصلت بلاغتها أن تُعبر عنه، ويظل تجربة فريدة لا يستطيع القلم أن يصل إليها، أما إن تصورت القلوب، فهو شعور لها !

ولكن نلحظ التكريم الإلهي العظيم للإنسان، ذاك المخلوق الذي تفضل الله عليه من بين ملايين المخلوقات، وهذا الموقف هو تشريف للجنس البشري كله، وتكريم له، وفي هذا الموقف العظيم المهيب جاء الأمر بمواجهة فرعون، هذا الطاغية العنيد الذي يستبيح القتل ويستعبد الناس، ويسترق أرواحهم، ويستلب ثرواتهم، ويستكبر في الأرض بغير الحق، جاء هذا الأمر للمؤمنين لمواجهة فرعون، فإن من يحاول أن يعتدي على سلطان الله في أرضه، أو يعتدي على خلقه بغير حق، فلا يحق للمؤمن أن يهدأ له بال، ولا يُغمد له سيف؛ حتى يرد سلطان الله في أرضه لشرعه ودينه وحكمه، ويرد أي اعتداء على خلقه بغير حق، ويجاهد ويواجه أولئك الذين يقطعون الطريق على الناس أن يصلوا إلى صراط الله المستقيم..

فكانت المواجهة:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

والتكذيب والكفر من فرعون وملئه قبل مجيء الآيات ومن بعدها، وهذه هي القضية الأصلية، قضية استكبار النفوس عن الإذعان لله وأمره ونهيه، والخروج من العبودية لله وعدم الإسلام له ! ومتى كان ذلك، ومتى لم يكن هناك "رغبة" في تغيير ما بهذه النفوس، لن تنفعها الآيات، وستُكذّب بها سواء جاءتهم أو لم تأتهم، وسيكون الحاصل بعد التكذيب هو الدخول في قضايا فرعية، واتهامات باطلة، وتحوير للقضية الأصلية، ومحاولة اختراع اتهامات تُطبل دعوة الحق، فهنا قالوا: "سحر مُفترى"، و"كلام لم يقله الآباء الأولين" ومسألة السحر ووصفه بالمُفترى إمعاناً في الامتهان والتكذيب، تم إبطالها في يوم الزينة.. يوم أن آمن السحرة.

والإضافة هنا: الاتكال على سيرة الآباء الأولين، وهي صورة متكررة من التكذيب، اعتبار الآباء الأولين هم ميزان "الحق والعدل" ! والآباء الأولون كانوا مثل غيرهم، لا يميزهم شيء، إذا اتبعوا الهدى والنور والرسول كانوا قدوة صالحة، وإن كانوا ضالين.. أصبحوا مُضلين لمن بعدهم، ويجب الخروج من تأثيرهم وتبعيتهم، ولكن القوم لا يعنيهم هذه الطريقة من التفكير، إنما يبحثون عن أي مبرر لـ "التكذيب" الحاصل في قلوبهم ابتداء، فلو كان الآباء مؤمنين بدعوة الحق.. لسبوا الآباء الأولين؛ فالقضية قضية هوى وتكذيب يبحثون له عن أي مبرر أو دليل، وهيهات أن يكون للباطل دليلاً.

ويُوجههم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى القضية الأصلية مرة ثانية وهي "الهدى من عند الله" ويجب الإيمان به والإسلام له، وهؤلاء هم من لهم وراثة الأرض – ولو بعد حين – مهما انتفش الباطل، ولن يُفلح الظالمون.. الظالمون لأنفسهم بتكذيبهم وكفرهم، والظالمون لغيرهم باستعبادهم وصرفهم عن دين الله..

كما تبجح الفرعون وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي ﴿٣٨﴾ ﴾

ويتجرأ الفرعون ويصل إلى صورة من التكذيب بعد ادعاء السحر المُفترى، ودعوى أنه كلام لم تصدقه سيرة الآباء الأولين، يأخذ هنا صورة فظيعة مستقبحة من التكذيب فيتجرأ على القول: "ما علمت لكم من إله غيري" – وقال في سورة النازعات: "أنا ربكم الأعلى" – ولعله هنا يقصد بادعاء الألوهية: ادعاء الربوبية على الناس.. كأن يُحلل لهم ما يشاء، ويُحرم عليهم ما يشاء حسب هواه، أو أن يصرفون له صور العبادة كالسجود والدعاء والعبادة، أو عبادة الأولين في المعابد عندهم، أو الخضوع له والذلة والطاعة له، وهذه هي صور ادعاء الربوبية من الخلق، فلا يملكون أكثر من ذلك، ولا يُتصور ادعاء الألوهية بمعنى تصريف الكون، وحركة الأفلاك، وإنبات النبات، وإنزال الأمطار، وخلق الخلق، فهذه دعوى باطلة لن يقوى أحد على ادعائها لأنه لا يستطيع أن يغير فيها شيئاً.. كمثل موقف أبينا إبراهيم وهو يحاج الطاغية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ

آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة (258)].

وقضية الربوبية قضية توحيد وحرية ابتداء، وينزلق الناس إلى الاستعباد من قِبل البشر فيها سواء شعروا أو لم يشعروا، وفرعون يعتبر نفسه الرب الأعلى، والدستور الأوحد، والمرجعية الأولى، له حق الأمر والنهي حسب هواه، وللناس أن يخضعوا له، ويأتمروا بأمره، ولعل قوله: "إله غيري" بمعنى حق التشريع والتحليل والتحريم حسب هواه، وقوله: "أنا ربكم" بمعنى حق الخضوع والذلة والطاعة له.. وكل منها صورة من صورة العبودية للبشر جاءت رسالة التوحيد لتحرير الناس منها، ورد الأمر "كله" لله.

ولكن نُسجل لفرعون صدقه مع نفسه – رغم هول ما قال – وصدقه مع عبيده، فهو قال صراحة: "ما علمت لكم من إله غيري" "أنا ربكم الأعلى" نسجل له هذه الصراحة القبيحة الفجة، لكنها مريحة، وتُسهل عملية المفاصلة، والبيان ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال (42)].

فهناك فراعنة وطواغيت في هذا العصر – وفي كل عصر – يمارسون صور الربوبية على الخلق، ولكن من دون أن يقولوا: "أنا ربكم الأعلى" يمارسونها؛ فيُحلوا ويحرموا حسب أهواءهم بغير هدى من الله.. ثم يقولون: إنهم مسلمون مؤمنون ! ويُخضون الناس لحكم الجاهلية، وحكم الطاغوت، ويذلونهم، فيُعبدون الناس إليهم ! تارة باسم الدستور والقانون، وتارة باسم نظام الحكم، وتارة باسم الحرية، وتارة باسم العلمانية، وتارة باسم الحداثة، وما بعدها، وتارة باسم الملكية، وتارة باسم الجمهورية... إلخ من الصور التي تتجسد فيها "ربوبية البشر" على غيرهم، ولكن من دون صراحة فرعون؛ فتكون هذه المسميات وبالاً على الناس، فلا يدركون حقيقة الخديعة، ولا يعرفون حقيقة التوحيد، ولا ينتبهون إلى أن التوحيد يفرض عليهم الاستسلام الكلي لله رب العالمين سواء في الاعتقاد أو العبادة أو التشريع والحكم ونظم الحياة.. وإن الله وحده هو المُشرع، وإنه وحده هو الذي يَدين الخلق لحكمه ويخضعون.. وإنه مهما كانت المسميات والمذاهب الوضعية والأفكار

البرّاقة الكاذبة.. فلن تغير من حقيقة التوحيد شيء، ولن تُحلل المسلم من وجوب الاستسلام لله رب العالمين.

ويكشف فرعون عن سفاهة عقله، كما هو عقل كل فرعون وطاغوت:

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وهنا تبرز الصورة المادية للتصور العقلي لفرعون، فهو عقل سفيه جهول أرعن، لا يتصور إلا ما يراه، وإن كان في قوله سخرية من دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولمز له، وتحدياً لله رب العالمين! فهو من جانب آخر يكشف عن محدودية العقل، وإدراكه.. فما هو الصرح الذي سيبلغ حتى السحاب لا السماء؟ وما هو الخلق الذي سيكون أكبر من خلق السموات والأرض؟! قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر (57)]. والعلم هنا ليس هو علم الناس أن السموات والأرض أكبر من خلق الناس فهذا ظاهر للعيان، إنما العلم هو العلم بالحقيقة الكلية الكونية المترتبة على هذا العلم، والعلم هنا هو جهل العقل المادي المحدود عن رؤية حقيقة ذلك، وما يستلزمها من توابع، كلها حتماً ستفضي إلى الاستسلام لخالق هذا الكون.. الذي يسألهم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[الطور (35، 36)]..

والعقل المادي المحدود، هو عقل غبي.. ينشر الجهالة في التصورات والمفاهيم؛ ويُضيع القيم والمفاهيم الكلية عن الله والكون والإنسان والحياة، وعندما يكون هذا عقل كبيرهم، فلنا أن نتخيل حجم المأساة التي سيكون عليها عبيده وجنده من ناحية الفهم والتصور.

وهدم العقل ودوره في رؤية خلق الله، وتأمل مخلوقاته، والاستمتاع بجمال خلقه.. تُصعب كثيراً قضية الدعوة إلى الله؛ فيغشى العقل القيود، والأغلال، ويُسجن.. فلا حرية له إلا بنور الله.. الذي به كذبوا !

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وتتلخص قضية التكذيب كلها في "الاستكبار" وهو مرض إبليس اللعين الذي به خرج من الملكوت الأعلى وحقت عليه اللعنة إلى يوم الدين، وما أن يصيب الإنسان حتى يُحوله إلى صورة من صور إبليس في قلب إنسان ! وإذ لم يُشف منها كان مصيره كمصير إبليس.. وهذا الكِبر يُخرج الإنسان عن الإحساس باليوم الآخر – حتى ولو كان يؤمن به من الناحية العقلية – فالكبر يُضخم اللحظة الآنية الحاضرة، ويجعلها مغنماً لا يتصور المُستكبر أن يتركه مهما حصل؛ فيطغى، ويستكبر في الأرض بغير الحق، وينسى من الناحية الواقعية النفسية أنه سيرجع إلى الله..

والعقاب الإلهي حاضر في الدنيا والآخرة:

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وهي سُنة في كل ظالم.. عاقبته الهلاك هو ومن تبعه، كما أن عاقبة المتقين.. في الدنيا: وراثة الأرض، وفي الآخرة: وراثة الجنة.

وكان فرعون – وجنده – أئمة يدعون إلى النار:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والمقصود بالإمامة هي إمامة الفراعنة والطواغيت.. فكل فرعون وطاغوت، إنما يمارس طغيانه على طريقة إمامه "فرعون" ولا يجد جديداً يقدّمه سوى التفنن في القتل والتعذيب وإيذاء المؤمنين.. وفرعون إمامهم، وهاديهم إلى النار، وفي الآية تحذير من سلوك طريق فرعون، فهو طريق النار والعياذ بالله، فحقت عليه اللعنة في الدنيا – وعلى كل طاغوت وفرعون – ويوم القيامة هم من المقبوحين.

وكل من يسلك طريق الفراعنة – في استعباد الناس، وقهرهم، وإذلالهم، واستباحة دمائهم، وأموالهم، وممارسة صور الربوبية عليهم – حتى ولو كان ممن ينتسب إلى الإسلام؛ فحتماً سيلقى مصير الفراعنة، ويكون من المقبوحين في الدنيا والآخرة، فهما طريقان:

- **طريق اتباع الرسل**: في إقامة الحق والعدل، والإحسان والتقوى، ومقاومة الظلم، ورد الباطل.

- **طريق الفراعنة والطغاة**: في ممارسة فجور فرعون، وظلمه، واتباع سنته وطريقته التي ستُفضي حتماً إلى النار، ففرعون – وكل طاغية – داعية إلى النار.

وقوله: "جعلناهم" أي: لم يخرجوا – بكل جرمهم وطغيانهم وتجبرهم – عن القدرة والمشيئة الإلهية، بل سخط الله عليهم، وأملى لهم إلى حين، وتركهم في غيهم يعمهون، بما قدّمت أيديهم.. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت (46)].

فـ "الجعل" هنا ليس هو "القهر الإلهي" لفعل فرعون.. بل هو "سنة الله" في المكذبين الذين اختاروا طريق التكذيب، والغرور، والاستكبار، والعلو في الأرض بغير الحق.

وفي أول السورة جعل الله الذين استُضعفوا "أئمة" وجعلهم الوارثين للأرض.. فـ "الجعل" هنا أيضاً ليس هو "القهر الإلهي".. بل هو "سنة الله" في المؤمنين الذين اختاروا طريق الإيمان، والصبر، والتقوى، واتباع الرسل..

فجعلهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أئمة إلى الهدى؛ بما أخلصت قلوبهم وأرواحهم لله رب العالمين؛ فرضي الله عنهم، بصدق قولهم وفعلهم، وحسن قصدهم ونيتهم لله، فتفضل الله عليهم بمنه أن جعلهم أئمة للهدى.. بما صبروا، ورزقهم حب الخير، وزينته في القلوب..

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء (73)].

والكل تحت القدرة والمشيئة الإلهية لا يخرج أحد عنها طرفة عين.. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل]

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ [النازعات]

***



يقول الله تعالى في سورة غافر:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّـهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّـهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّـهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّـهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّـهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ

﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

تستعرض سورة غافر – في هذه الحلقة – العديد من الدروس منها: (بيان حزب فرعون، بيان صور إرهابه، استعراض قصة مؤمن آل فرعون، بيان حسرة الأتباع الضعفاء – يوم القيامة – القابلين بنظام فرعون وتبعيته وشرعيته، بيان سنة نصر الله لعباده المؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة ، مواساة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لما يلقاه من كفار قريش ، بيان أسباب التكذيب ، وأخيراً التذكير بالساعة ويوم الحساب).

| | |

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

جمعت الآيات هنا بين فرعون وهامان وقارون.. وقارون هو من قوم موسى، واستكبر كما استكبر فرعون، فلم ينفعه أنه كان من قوم موسى، وجُمع في الجزاء والمصير مع فرعون وهامان، وسيأتي تفصيل قصته في موضعها إن شاء الله، والآية بيان لحزب فرعون، والمحور الذي يقوم عليه هذا الحزب ليس القوم، ولا الدين.. إنما هو "المصلحة" والعبودية للمال والمنصب والسلطة، والحفاظ عليها بأي صورة كانت! فإنهم يحسبون أنهم بأموالهم خالدون، باقون ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة (3)]. فهذه سُكرة المال.. الطغيان والنسيان؛ فيكون هلاكاً على صاحبه!

وعودة مرة ثانية إلى الاتهامات الباطلة للرسول بالسحر والكذب، وهي اتهامات باطلة، وفرعون أول من يعرف أنها باطلة، لكنها محاولة حقيرة للدفاع عن نفسه وملكه، وأبطل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الدعاوى والاتهامات كما سبق التفصيل في آيات أخرى، وجاء الرد على دعوة الحق، وعلى انتصار الحُجة، وظهور الآيات، بالقتل والتعذيب.. فهذه بضاعتهم، وهذا كيدهم، وهو كله في ضلال، وفي هباء، وسينقلب حسرة وخسراناً عليهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

ويتحدث فرعون إلى ملئه، أو يحشد خلفه الجماهير.. لأنه يشعر بالخوف والتهديد، فيقول: "ذروني أقتل موسى" ومن يمنعه؟! هل منعه الملأ أو الجماهير؟ ولكنه شعور الخوف رغم مظاهر البأس والقوة الظاهرة، وعندما يشعر الفراعنة والطواغيت بالخوف على أنفسهم وملكهم تتبدل لغتهم فوراً إلى لغة الحوار والتشاور، ولغة الاهتمام بالقوم والجماهير، وتحميلهم المسؤولية عن الجرائم التي تدبر للأبرياء.

وكثيراً ما ينخدع المسلمون والدعاة! عندما تتبدل لغة الفراعنة والطواغيت في لحظات الخوف، ويحسبونها "توبة نصوحاً" وعودة إلى الصراط المستقيم، وليس هناك من داعٍ للمواجهة التامة الكاملة، حقناً للدماء! ومتى انخدع المسلمون في هذه اللغة، ما هي إلا لحظات وتسيل دمائهم أنهاراً عندما يأمنون مكر الفراعنة والطواغيت!

والحالة النفسية والفكرية للفراعنة والطواغيت، تكاد تتطابق في كل جيل، وذكر القرآن التفصيلي لهذه القصة بالذات بياناً للأمة المسلمة؛ لتحذر هذا المكر، وهذه الخديعة، وتكون من اليقظة، والحذر، واستبانة سبيل المجرمين.. ما يعصمها – بعد الله – من الخديعة والمكر.

وفرعون هنا يتحدث عن: "تبديل الدين" و"الإفساد في الأرض".

والحديث عن الدين، والفساد في الأرض.. حديث يحرك عاطفة الجماهير، ويحشدها ضد ذاك الذي يريد الاعتداء على دينها، ويُفسد في أرضها، فيصحب إثارة عاطفة الجماهير إغلاقاً لعقولهم.. ففرعون لا يعنيه دين موسى ولا دين آباءه، إنما يعنيه ملكه وسلطانه.. ونسيت الجماهير أن هذا الدين يجعل من فرعون ابن الآلهة! وهم عبيد لابن الإله، فهل هذا بدين؟ أم استعباد البشر وتحويلهم إلى قطيع كالبهائم؟! ثم ما هو الإفساد في الأرض، وفرعون هو من يقتل ويعذب، ويسفك الدماء بغير حق، والقوى المادية هي في يد فرعون.

والعجيب أن الجماهير – في كل جيل – تُصدق هذه الدعاية الكاذبة، وتحسب أنها على الصراط المستقيم، وتطرب للكذب، وتسمع له! وتصدّقه وتدافع عنه؛ لانحراف نفوسها، وفساد فطرتها، وتعتبر صوت العقل، وتفنيد الأقوال مجرد عبث، وكلام فارغ، غير واقعي!

ويجب أن ينتبه الدعاة دوماً إلى قضية الإعلام، والدعاية، واللغة التي يستخدمها الطغاة في خداع الجماهير وتخديرها.. ليَحذروا ويُحذروا منها، فالطغاة اليوم جعلوها معركة أشد وأعنف من المعارك العسكرية، وترصد لها المليارات من الأموال، والآلاف من أمهر العقول؛ من أجل تخدير الناس، وخداعهم، وقطع الطريق على سماع الحق، ودعوته.

ويُقابل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التهديد بالقتل، والدعاية الكاذبة.. بالركون إلى الحصن الحصين، والملجأ المتين؛ يرتكن إلى ربه ورب فرعون، ويستعيذ بالله منه، ومن كل متكبر.. لا يؤمن بيوم الحساب.

ويُلخص موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قضية ومرض فرعون في الكِبر، فليس هو في الحقيقة بالقوي، بل هو مريض بأفتك مرض يصيب النفس الإنسانية، ويؤكد على كفرهم باليوم الآخر.. يوم الحساب، رغم ما يُعتقد أن في دين الفراعنة الإيمان باليوم الآخر، فهم في غفلة عنه وكفر به، ويعتمد في الحكم ليس على التصور النظري في العقل، إنما على حقيقته في النفوس وانعكاسه في الواقع، فشخص بهذا الكبر، مستعد لفعل كل شيء، وأي شيء من أجل المُلك والسلطان، لا شك أنه لا يؤمن بيوم الحساب، فكيف يخسر نفسه، ويرتكب كل فاحشة من أجل متاع زائل، ولن يُخلد فيه؟! ولكن الكِبر يضخم الأمر في النفس، ويشوه بنيتها؛ حتى تهلك.

| | |

وتعرض السورة هنا بانفراد قصة "مؤمن آل فرعون":

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

ورغم ظلام الطاغوت، وكيد الفرعون، يخترق شعاع النور الإلهي مؤمن في قلب نظام آل فرعون، مما يكشف عن أن قضية الإيمان هي قضية قلب يتجه إلى الله، ومتى اتجه القلب إلى الله مهما كانت الظلمات من حوله، ومهما كان الكيد والمكر، فإن نور الله في القلوب نافذ، ولا سلطان على هذه القلوب إلا الله.. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت (69)]. وتكشف كذلك عن أن قضية التصديق بالرسول والإيمان بالرسالة ليست مرتبطة بالمعجزات المادية القاهرة – إنما هي لإقامة الحُجة – وإن الإيمان حقيقة مركوزة في الفطرة، تحتاج فقط إلى التذكير.. فكانت حالة "مؤمن آل فرعون" ويبدو أنه من علية القوم منهم؛ فهو حاضر لمجلس التشاور الذي عقده فرعون لمواجهة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وحالة مؤمن آل فرعون تعتبر زاداً للدعاة من عدم اليأس من الدعوة، ونفض الأيدي عن الناس بعد التكذيب والإعراض، فلا يعلم الداعية متى تثور الفطرة وتنتفض، ومتى تستجيب النفس وتنفعل؛ لذا فإن كل ما عليه هو الدعوة الدائمة والتذكير الدائم، والحضور المستمر.. لا يغيب أبداً، بل يظل في عمله حتى يأتي أمر الله.

وعودة إلى خطاب فرعون عن المشاورة في قتل موسى في قوله: "ذروني أقتل موسى" ويبرر هذه الجريمة: بتبديل الدين، والإفساد في الأرض، والفراعنة والطواغيت عندما يطرحون قضية للتشاور، ليس من أجل التشاور، فهو لا يريدون لأحد أن يرد لهم كلمة، ولكن شعور الخوف والتهديد الداخلي يجعلهم في رغبة في "التَقوي" بغيرهم مما يشاركونهم نفس المصير، إذن ليس هناك مجال للحوار والأخذ والرد وتمحيص الأقوال، والوصول إلى الرأي السديد، بعد تقليب النظر، ووزن الأمور..

لذا تفاجأ الفرعون بمن يرد عليه!

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّـهِ إِن جَاءَنَا ۚ ﴾

فجاء الرد من فرعون:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه هي حقيقة الفراعنة والطواغيت.. هي الاستبداد والقهر، لا مجال للحوار، ولا مجال لاستبصار الصواب، فهو رأي واحد فقط لا غير هو رأي الفرعون، وقوله: "ذروني أقتل موسى" ليس من باب المشاورة والسماح وأخذ الإذن، ولكن من أجل التطبيل والتأييد الأعمى، وسماع عبارات الثناء والإعجاب، وإقامة الاحتفالات على رأيه السديد الفريد، وكتابة قصائد الشعر في عبقرية وفهم وحكمة فرعون.. وإنه وحده هو الذي يعرف سبيل الرشاد، حتى ولو خالف رأيه

النظرة العقلية والفطرية التي تحدث بها مؤمن آل فرعون: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

ونرى هنا عبث ما يُسمى مجالس الشورى، والشعب، والأمة... إلخ من المسميات الضخمة تحت أنظمة الطغاة والطواغيت والمجرمون، والتي ينخدع فيها المسلمون، ويظنون بها خيراً، والتي ينفق فيها المسلمون من أجيالهم وأعمارهم وأموالهم في انتظار تغيير من خلالها، أو إصلاح! وإن هي إلا للتطبيل للفراعنة والطواغيت.. وحشد التأييد لهم! أو لتفريغ الغضب الشعبي لحين، فلا قيمة لمثل هذه المجالس أمام استبداد الفراعنة والطواغيت، وإذا خرج صوت صادق منها - أحياناً - فسيكون الجواب من الطاغوت: "ما أُريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد" وهذه الآية القصيرة تختصر على المسلمين محاولاتهم الفاشلة في التغيير من خلال هذه المجالس، وتوجه طاقاتهم وجهدهم ومجال عملهم، في فضح نظم الطواغيت والفراعنة، وإسقاط شرعيتهم، وشرعية نظمهم، والبراءة منهم، وإتمام واجب الدعوة، استعداداً لإتمام واجب المواجهة، والتحرر الكلي من الاستبداد والطواغيت؛ فمحاولة تغيير نظم الفراعنة والطغاة من خلال أدواتهم ونظم عملهم وقوانينهم هي محاولة فاشلة، ولا يمكن الاعتماد الكلي عليها.[1]

ويرد مؤمن آل فرعون مرة ثانية على رأي فرعون ورشده!:

﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وها هو بعد النظرة العقلية والفطرية، يطرح لهم النظرة التاريخية والسننية، فيتحدث عن مصير المكذبين من الأقوام السابقة، ولعل هذه المعرفة إما من رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو من بقايا دعوة

(1) راجع – إن شئت – بحث: "الفئة الباغية" (على مدونة أمتي).

يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم يطرح لهم النظرة الأخروية والحساب.. والإيمان باليوم الآخر مألوف في معتقدهم!

ويشير طرح مؤمن آل فرعون كذلك إلى: (الظلم، الإسراف، الشك والارتياب) وكلها أمور تفسد تأمل العقل، وإيمان القلب، فالظلم ظلمات على القلوب والعقول، والإسراف مُفسد للنفوس، ومضعضع لها، والشك والارتياب سيعطل عملية تغيير القيم والموازين، والتصورات والمفاهيم الجاهلية لديهم.

ويأتي التعقيب الإلهي على هذا الحوار:

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

نعم.. إنه المقت الأكبر والذنب القبيح والجرم العظيم عند الله، وعند الذين آمنوا – وإضافة المؤمنين هنا تشريفاً لهم، ومعية من الله وفضلاً – إنه "المجادلة" في آيات الله بغير سلطان من الوحي، ومن العلم.. فأنى لفرعون ومن تبعه المجادلة بغير علم ولا هدى ولا كتب منير؟! ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج (8)]. وهذه المجادلة الباطلة – التي تريد وتهدف إلى مجرد المجادلة والاعتراض لا الوصول إلى الحق، ولا البحث عن الهدى – هي ما تطبع على قلوب المتكبرين الجبابرة.. هذه المجادلة التي سببها الكبر والتجبر؛ تُفسد القلوب، وتغلقها عن رؤية النور الإلهي، وتطبع عليها فلا تؤمن ولو جاءتها كل آية!

| | |

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

ويظهر عناد فرعون وكبره، ومحاولته الظهور بمظهر العاقل، الباحث عن الحق! فهو يريد أن يصعد إلى السماء ليبحث عن إله موسى، وهذه الصورة القبيحة المقيتة من الكبر.. التي يحاول فرعون فيها

أن يلبس ثوب الحكمة والبحث عن الحق، وهو يعلم جيداً أنها مستحيلة، ولكن فساد قلبه وانغلاقه جعل الشيطان يزين له الكذب حكمة، والتطاول بحثاً عن الحق، ثم بعد كل هذا القبح، يقرر النتيجة المسبقة، وهي: كذب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ!

وإن أوسع الأبواب التي ينفذ منها الشيطان إلى الإنسان هي الكبر، وإن دخل منها.. استقر، فالشيطان هو حامل المرض الأول لـ "الكبر"، وما يملكه الشيطان من وسائل هي: الوساوس وتزيين الباطل في القلوب الخربة الفاسدة، وعندها سينصرف القلب عن سبيل الهدى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف (146)].

وفي النهاية.. ما يكيده فرعون لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما يكيده من صرح ليبحث عن إله موسى جَلَّجَلَالُهُ هو في خسار وتباب.

وعودة إلى مؤمن آل فرعون في الحديث الصادق عن سبيل الرشاد:

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

ونرى في هذا الحوار التنازع على "سبيل الرشاد" فقد ادعاه فرعون! وهنا ينتزع مؤمن آل فرعون القول من فرعون، ويبتدر الحديث عن حقيقة "سبيل الرشاد" في: بيان حقيقة الحياة الدنيا وفناءها، وأن الآخرة هي خير وأبقى، ومن ثَم الحديث عن الحساب والجزاء والتبعة الفردية لكل إنسان ذكراً

كان أو أنثى، سيداً كان أو حقيراً، وبيان أهل الجنة وأصحاب النار.. وليختر الإنسان أي دار منهما يريد، ويتحدث أخيراً عن حقيقة التوحيد وإفراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعبودية والطاعة..

وإنّ فرعون ادعى الربوبية على قومه؛ فأخضعهم لرأيه وحكمه ونظامه بغير سلطان ولا وحي من الله، وأحل لهم برأيه ما شاء، وحرّم عليهم برأيه ما شاء، وهذا من صور الشرك بالله، فالربوبية لله وحده لا شريك له، فهو صاحب الخلق، وهو صاحب الأمر.. وهو الذي إلى حكمه وأمره وشرعه يَدين البشر ويخضعون، أما الفراعنة والطواغيت.. فهم يُعبِدون الناس لهم، ويُخضعونهم ويذلونهم ويقهرونهم تحت مسميات باطلة تختلف شعاراتها في كل جيل، لكن حقيقة الشرك فيها واحدة.

وكثيراً ما يستخدم الفراعنة والطواغيت لغة مثل: (الرشاد، تبديل الدين، الإفساد في الأرض... إلخ)؛ لخداع الجماهير، واستهلاك لغة الدعوة التي يحملها الداعية، في محاولة لاستلاب قوة الدعوة، فالداعية سيستخدم هذه المفردات: (سبيل الرشاد، تبديل الدين والشرك بالله، الإفساد في الأرض من قِبل الطواغيت والفراعنة)، وعندما يستبق الفراعنة تكرار كلام الداعية بنفس الألفاظ، إنما هي محاولة خبيثة لتفريغ لغة الداعية من مضمونها، حتى إذا سمعها الجماهير لم يجدوا فيها جديداً، وإنّ الطغاة سبقوا بالقول فيها.. وباتهام الدعاة بهذه التهم، فيحسبون أن المسألة "صراعاً شخصياً" وقضية ليس لهم علاقة بها، وليسوا هم طرفاً فيها !

وعلى الدعاة الانتباه لهذه الحيل الخبيثة والمكر الشديد، وأن يُصروا على دعوتهم، وعلى الحفاظ على لغة دعوتهم سليمة مستقيمة، وأن يقطعوا الطريق على هذا المكر، بالبيان الواضح التام، وباللغة القريبة من فهم الناس، والصبر على ضعفهم وجهلهم.. فالمكر شديد، ولا عاصم له إلا الله.

ودعوة الشرك التي يتحدث عنها هنا مؤمن آل فرعون، ليس لها من حق في الدنيا ولا في الآخرة، فالشرك ظلم عظيم، وأشد الدعوات الباطلة ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان (13)]. فكيف لمخلوق أن يدعي أو يقع في الشرك، والكون كله يشهد بالوحدانية لله؟! والمتأمل في الحياة الدنيا وفي الآخرة سيجد أن الشرك دعوى باطلة لا يقوم عليها أي دليل.. وإن المسرفين على أنفسهم،

وأقوامهم هم مَن يقعون في الشرك، وهم مَن يُفسدون أنفسهم؛ لينفذ إليها الشيطان؛ ليُزين لها الباطل حقاً، والشرك ديناً، وذلك هم أصحاب النار.

ثم يُفوض المؤمن أمره إلى الله، ويُفاصلهم على التذكرة بصدق ما يقول، وإن الله لسميع بصير بكل عباده.. ومنهم ذلك الفرعون الحقير اللعين.

ولقد كرّم القرآن الكريم مؤمن آل فرعون.. فسماه "مؤمن" وهي شهادة عظيمة خالدة، وأعرض القرآن الكريم عن ذكر اسمه ونسبه، فقد نسبه إلى الإيمان.. وما أعظمه من نسب! وهذه طريقة القرآن الكريم في التركيز على العبرة، والدرس، فالغاية هي اتباع النور الذي جاء به هذا الكتاب.

ويأتي التعقيب الإلهي على هذا الحوار مرة ثانية:

﴿ فَوَقَاهُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

وبصدقه أنجاه الله، فهو من آل فرعون.. وقد مكروا بالرسالة وبالرسول، لكن مفاصلته لهم، ودعوته لهم.. جعلته غير تابعٍ لهم؛ ولا مأخوذ بذنبهم.. فوقاه الله من العذاب، وتتبين مرة أخرى، أهمية قضية "الاتباع" و"المفاصلة"، وإن الإنسان في أي وضع كان، وفي أي مكان كان، عليه البحث عن سبيل الرشاد، وطريق النجاة، ولا يستسلم للأوضاع الموجود فيها، فهذا رجل من آل فرعون.. يؤمن ويُحاج قومه، ويُبين لهم.. رغم ما قد يصيبه من الأذى والعذاب على يد فرعون، لكن قضية الدار الآخرة وهي: إما دار الجنة، أو دار النار.. قضية كبرى أصيلة كلية يجب أن يضحي الإنسان في سبيلها، مهما كانت التضحيات.

| | |

وبياناً من قلب النار في قضية الاتباع، يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعد نجاة مؤمن آل فرعون عندما فاصل قومه ولم يتبعهم:

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّـهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ

الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

هذا البيان يأتينا من قلب النار! وهذا المحاججة والحوار بين الضعفاء والذين استكبروا تأتينا من الدار الآخرة، على طريقة القرآن الكريم في حديثه عن الآخرة كأنها هي اللحظة الحاضرة، والدنيا ماض انتهى ولن يعود!

الضعفاء: وهم الجماهير والأتباع. والذين استكبروا: هم الفراعنة والطواغيت وملئهم.. الآن جميعاً في النار! وإن الضعفاء هم الذين قهرهم فرعون واستبد بهم، وهؤلاء الضعفاء لم يكونوا مغلوبين على أمرهم، بل في صدورهم كبر أيضاً.. نعم "استكبار" عن سماع الحق، و"ترهل" عن البحث عن النور، "وقابلية" للذلة للطواغيت.. "وفسوق" وفساد وانحراف عن صراط الله المستقيم، و"استمتاع" بالعبودية للفراعنة، "وإعراض" عن دعوة الحق لما جاءتهم، بل كانت في أيديهم.. ويد جند فرعون سيفاً مسلطاً عليها ! فلم يكن هناك رغبة في التحرر من هذه الذلة والعبودية ابتداء، فهذا حقيقة موقفهم؛ ولذا كان مصيرهم مع الذين استكبروا في مكان واحد هو "النار" والعياذ بالله.

ويتساءلون في يأس وقنوط: "إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟" وحتى ولو أغنى المستكبرون عنهم نصيباً من النار، فإلى أين يذهبون؟! فكلهم في النار خالدون، وهذا هو الخسران المبين!

ويطلبون جميعاً التخفيف ولو ليوم واحد! وماذا سيُغني اليوم الواحد عن العذاب المؤبد الخالد؟!

ويرد عليهم ملائكة النار: بأن الرسل والرسالة جاءتهم بالبيّنات، وطلبهم بالتخفيف ولو ليوم واحد مردود عليهم، ومرفوض؛ فقد سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون.

| | |

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وإن قدر الله ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر رسله والمؤمنين معهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء.. وتأكيد النصر في الدنيا له مغزى في قلوب الذين يواجهون الفراعنة والطغاة، فمجرد النهوض فقط لهذه المواجهة هو انتصار في حد ذاته.. انتصار الإيمان على الطغيان، والعقيدة على الألم، والروح على المادة..

ووراثة الأرض والتمكين للذين آمنوا سيأتي في اللحظة المُقدرة عند استكمال السنن، وإتمامها، وفيه طمأنة لقلوبهم، وسكينة لنفوسهم؛ ليمضوا في طريقهم، وهم أقوياء بالله، عليه متوكلون، وبه مستعصمون.. فهم منتصرون – بإذن الله – في الدنيا والآخرة، وفي الآخرة لن تنفع معذرة الطغاة، ولن تُقبل منهم توبة.. فقد حقت كلمة الله على الظالمين المستكبرين باللعنة ودار النار.

| | |

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وتختتم هذه الحلقة بالعودة إلى قوم موسى، ووراثتهم للكتاب والهدى؛ ليكون لهم ذكرى، وفيه دعوة للنبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بالصبر على قومه، ودوام الاستغفار، والتسبيح والذكر لله، في كل وقت وحين.. فهو زاد المؤمن، وهو مثبت القلوب، وهو أنيس الموحدين في مواجهتهم مع الطغيان.. والقصة بيان ومواساة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لما يلقاه من كفر وعنت قريش.

ويجمع السياق هنا "مجادلة فرعون" مع "مجادلة كفار قريش" في ألفاظ متقاربة تكشف عن حقيقة الطغيان والتكذيب، ففي حالة فرعون، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهنا في حالة كفار قريش: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

فالمرض واحد هو "الكبر" الذي يُخرج هذه "المجادلة" بالباطل، وبغير سلطان من وحي أو علم.. وهذا الكبر لن يبلغ بصاحبه مراده، وإن أراد لنفسه خيراً.. فعليه التواضع أولاً، والاعتراف بالمرض ابتداء، ثم البحث عن علاج، والعلاج الاستسلام لله ورسوله ولكتابه وشرعه، ومَن أخلص سعيه إلى الله، كان حقاً على الله هدايته.. وعلى الرسول الكريم الاستعاذة بالله، واللجوء إليه، والركون عنده.. من هذا الجدال المُمرض، ومن هؤلاء القوم المتكبرون في الأرض بغير الحق، والله بهم سميع بصير، لم ولن يخرجوا عن إرادته ومشيئته وقدرته وعلمه وإحاطته طرفة عين.

وفي إشارة للحديث عن المستكبرين في الأرض بغير الحق، نرى آية عجيبة تسخر منهم:

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

على ماذا تستكبرون؟! وخلق السموات والأرض أكبر من خلقهم ومن خلق الناس كلهم.. وهي آية متروكة للعقل أن يتوقف عندها كثيراً ليتأملها ويتفكرها.. ولكن أكثر الناس لا يتفكرون ولا يعلمون هذه الحقيقة، ليس كون السموات والأرض أكبر من خلقهم، فهذا ظاهر أمامهم، ولكن لا يعلمون حقيقة أن الخلق والأمر لله وحده لا شريك له، وأنه وحده أحق بالألوهية والربوبية من المستكبرين في الأرض بغير الحق، وإن صرف صور العبادة سواء في الاعتقاد أو العبادة أو التشريع والحلال والحرام لغير الله، وبغير هدى من الله؛ لهو شرك عظيم الناس في غفلة عنه، ولا يعلمون حقيقة كون أن الله جَلَّجَلَالُهُ صاحب الخلق والأمر.

ولن يستوي من يعلم مع من لا يعلم:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

فهل يستوي الأعمى والبصير.. هل يستوي الأعمى عن رؤية حقيقة الألوهية والربوبية، مع البصير بها، والخاضع لها، والمؤمن بها؟!

هل يستوي من آمن وعمل صالحاً مع من كفر وأساء؟!

والجواب: قليل من يتذكر ويعرف الحقيقة، ويبصر الطريق، وكثير من يستوي عنده الأمور، ويحسب أن العمى والإبصار مجرد "حرية شخصية" علينا احترامها، بل وإفساح المجال لـ "الأعمى" ليقود البصير! ولـ "المسيء" ليسود ويحكم، كما فعلت لوثة الجاهلية بعقول كثير من المسلمين، واعتبرت ذلك من "حقوق الإنسان" ومن "مبادئ الحرية"!! وقليلاً ما تتذكرون!

| | |

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ويختتم هذا الدرس بتنوير المؤمنين إلى حقيقة الإيمان باليوم الآخر، الإيمان الصحيح المفضي إلى العمل وإلى الوجل والخشية بعد صالح العمل، وإلى الإعداد لليوم الآخر فلا ريب فيه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بحقيقته المؤدية إلى الأثر الواقعي، ولا يُخلصون في الاستعداد لهذا اللقاء.

***



يقول الله تعالى في سورة الزخرف:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

تعرض آيات سورة الزخرف دروس جديدة في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، وتكشف التشابه الذي يُلاقيه الرسول - في كل رسالة - من صور التكذيب التي تتكرر من القوم الكافرين.. وبينما يخبرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بحقيقة رسالته ودعوته، ثم بالإعجاز المادي لهذه الدعوة، فكان الجواب منهم الضحك والسخرية! وهي موقف تكرر مع النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما جاء قومه بالرسالة الخاتمة فحكى عنهم القرآن: ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم (59، 60)].

| | |

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وتستعرض الآيات فضل الله ونعمته، ورحمته التي سبقت غضبه، فالرسالة والرسول من أعظم نعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على البشرية، لكن المستكبرين والفراعنة والطواغيت، كفروا بها - وهم يعلمون صدقها - لأنهم رأوا فيها أنها تصطدم مع مصالحهم المادية والشخصية الزائلة؛ فكفروا بها وناصبوها العداء! ولن يطفؤوا نور الله ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[الصف (8)].

وتأتي الآيات المادية القاهرة نعمة أخرى؛ لعلها تزلزل العقول الصدأة، والنفوس المترهلة، والقلوب المتحجرة؛ لتتجه إلى الله جَلَّجَلَالُهُ وتعرف عظمته وأنه الأحق بالطاعة والعبادة، وكل آية أكبر من أختها، فأنى عنها يُصرفون؟!

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ثم تأتي نعمة العذاب.. نعم العذاب بهذه الصورة نعمة، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رحيم بعباده، وما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا رحمة لهم، وتذكرة، وهداية إلى صراط الله المستقيم، وهذا العذاب غرضه: هزة القلوب، وزلزلة النفوس بعدما فشلوا في الاستجابة للدعوة، وفشلوا في الاعتبار بالآيات، فجاء العذاب.. لماذا؟ "لعلهم يرجعون". فالنعيم يُسكرهم، والاستقرار يُنسيهم، ويظنوا معه أنه دائم أبد الدهر، فيأتي العذاب ليُشجعهم على التغيير والثورة وانتفاضة النفس من كسلها، وإمساكها عن الهروب من الاستقامة!

والتكذيب بالآيات هو من أشد الظلم.. وهو ظلم للنفس ابتداء، لا يضر الله شيئاً جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[الكهف (57)].

ثم تكشف الآيات عن الكِبر الذي أفسد هذه النفوس؛ فجعلها تتطاول حتى وهي في موطن العذاب! وتطلب بسوء أدب، وتورم في النفس، مما يكشف عن أن أمراض الاستبداد والفرعونية قد توغلت في هذه النفوس إلى أبعد حد، ويكشف عن أن كل ما هَمهم في الدعوة، والآيات المعجزات، والعذاب، هو مجرد كشف هذا العذاب الواقع عليهم اللحظة.. ولم ينتبهوا إلى العذاب الأبدي في الآخرة إن كذبوا وكفروا.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وتكشف هذه الآية عن محدودية عقولهم، وسفههم في رؤية الأخطار، وعدم التمييز، وظهر كل ذلك في قولهم: "يا أيها الساحر " "ربك" فلم يؤمنوا بالرسول، ولم يؤمنوا برب الرسول.. القضية كلها في نظرهم مادية بحتة، والتفكير المادي اللحظي هو كل ما يملأ عقولهم، وخروج وعود من هذه العقول القاصرة المحدودة، ومن هذه القلوب المريضة، ومن هذه النفوس المُستكبرة لا يَعدو إلا أن يكون كلاماً لا قيمة له.. ثم هم لا يملكون الهداية لأنفسهم، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الهادي، وهو الذي يهدي من يريد الهداية بحق، ويستسلم لله بصدق، ويجاهد في معرفة الله، وطلب رضاه بعزيمة وحرص، أما أولئك الذين يستكبرون ويتجبرون ويظنون أنهم يملكون قرار الهداية والضلالة لأنفسهم، فهم ابتداء في ضلالة؛ ولذلك كذبوا بعد رفع العذاب عنهم:

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۞ ﴾

فنكثوا ما عاهدوا الله والرسول عليه.. ولكن إنما ينكثون على أنفسهم: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾[الفتح (10)]. ولكن ما ماهية هذا العهد؟ إنه: "إنا لمهتدون" وقد ظنوا أن الهداية أحد الأشياء التي تأتيهم عندما يُلوحون لها بالإشارة ! إن الهداية من الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف (178)]. ولو كانوا صادقين في طلبهم.. لكانت قلوبهم من الخشية والوجل، والرغبة والإرادة، والقصد والطلب، والذلة والطاعة والخضوع لصاحب الهداية والقادر عليها.. لكنهم كانوا يُطلقون وعوداً في الهواء، لحين رفع العذاب اللحظي الذي ضايقهم..

وكثيراً ما ينخدع المسلمون عندما يسمعون الوعود من الجاهلية والطغاة؛ فيصدقونها! وينتظرون الجواب أو التغيير، فلا يكون إلا الفتك بهم، والتآمر عليهم، والمكر بهم.. وعلى المسلمين أن ينظروا في القلوب والعقول والنفوس الصادرة عنها الوعود والكلمات، لا مجرد جميل الألفاظ والعهود مهما كانت.. ومَن استكبرت نفوسهم عن الإيمان بالله جَلَّجَلَالُهُ والخضوع له، لا يمنعهم أن ينكثوا عهودهم مع خلق الله.

| | |

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وهذا هو محور درس هذه الحلقة من حلقات المواجهة بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون، وهي: "مفردات الخطاب الجاهلي للطغاة والفراعنة" وكيف يلقونه إلى الجماهير على أنه حقيقة واقعية بديهية! فكانت هذه المفردات:

[مُلك مصر، ومظاهر هذا الملك – اعتقاد الأفضلية لكونه ملك من سلالة الملوك – مظاهر المتاع في الذهب – الصورة المادية]

وهذا هو الخطاب المادي، والفكر المادي المجرد، الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس، ويكفر أو ينكر ما وراءه أو يُسقطه من حساباته.. ويهبط بالإنسان إلى إدراك البهيمة، واهتمام البهيمة؛ مما يؤدي هذا الفكر – من الناحية الواقعية – إلى إنكار الغيب، واليوم الآخر، كما حكى عنهم القرآن في الكفر باليوم الآخر في غير آية ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[غافر (27)].

فيستعرض فرعون مُلكه أمام ما يَملك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعدد على قومه أن له ملك مصر، وأنهارها.. وأن له المتاع والسلطان والذهب، ويتساءل: "أفلا تبصرون"؟!

نعم.. قوم فرعون أبصروا ظاهر قول فرعون، رؤية مظاهر الملك والمتاع..

ولقد أبصر المؤمنون غير ما أبصر قوم فرعون، أبصروا العبد الفرعون الحقير مُلقى جثة هامدة على شاطئ البحر، تصحبه لعنات في الدنيا، ويوم القيامة في أشد العذاب، فلم يَدم له ملك مصر وأنهارها، ولا ذهبها ومتاعها !

وكثيراً ما يريد الفراعنة والطغاة أن يظهروا بمظهر العقلاء النبهاء الأذكياء.. كما قال فرعون: "أفلا تبصرون" كأن ما يقوله حقيقة لا تقبل الشك أو الرد.

ويترك فرعون القضية الأصلية.. قضية الاستسلام لله رب العالمين، القضية التي لا تقبل المماحكة والجدال، ويهرب منها في اتهام شخص الرسول الكريم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيتهمه بـ "الضعف، وقلة المكانة والأبهة" و"عدم حسن بيانه" وفي هذه الصورة الحقيرة من فرعون أمرين: **الأول**: استكمالاً لطبيعة الفكر المادي، الذي لا يريد الإيمان إلا بمنافسة الفراعنة والطواغيت في المتاع والسلطان! **والثاني**: الإصرار على التكذيب بالبحث عن تهم فرعية، ولو كان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أبهة ومُلك، لكذبه الفرعون أيضاً! فالقضية هي: صراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، ولا يقبل أحدهما بوجود الآخر، وقد سبق اتهام فرعون اللعين لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالسحر، والكذب، وتبديل الدين، والإفساد في الأرض، وهي تهم لا يقوم بها إلا قوي شديد.. والتهمة الجديدة هنا "ضعيف مَهين" لا يُحسن الكلام – ربما لعلة أصابت لسانه – والقضية عند الطغاة والفراعنة ليست هي صدق التهم، بل هدم شخصية الرسول – والدعاة من بعده – وإصراف الجماهير عن القضية الأصلية، والفكرة الكلية؛ حتى تنشغل الجماهير بالجزئيات، وبالتهم، وبالرد على التهم، ومن ثم تتناطح الجماهير – كالماشية – فيما بينها، بينما الطغاة استلبوا عقولهم، وسرقوا منهم سعادة الدنيا، ونجاة الآخرة، وقطعوا عنهم النور الإلهي القادم إليهم بظلمهم أنفسهم.

وتشابهت قلوب الطغاة في السخرية من الرسل والأنبياء، فقولوا عن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان (41)].

وتشابهت قلوب الطغاة؛ فيطلب فرعون من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

كما طلب كفار قريش من محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ نفس هذا الطلب:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾[الإسراء (90، 91، 92)].

ولو جاءتهم الآيات لكفروا بها، إنما هي المجادلة بالباطل؛ للتكذيب والهرب من الاستجابة للدعوة، ولن تهديهم الآيات إلا عند الاستسلام لله رب العالمين، والإقبال عليه، فالكبر يطبع على قلوبهم، وعليهم أن يتطهروا من رجسه، ولو جاءتهم كل آية ما آمنوا: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر (14، 15)]. ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس (97)]. وهذه النفوس المستكبرة، المختوم على قلوبها، ولا تريد التوبة، ولا ترغب في الاستجابة.. لا تستفيق ولا تدرك ولا تفهم إلا عند وقوع العذاب الأليم الذي لا رجعة منه، ولات حين مناص.

| | |

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وبعد طرح فرعون لمفردات خاطبه المادي.. وفي نهايته يتساءل: "أفلا تبصرون"؟! فأبصر الجماهير والسفهاء ظاهر المتاع الزائل، والمُلك المحدود المقطوع.. شاهدوا ما يتمنونه لأنفسهم، وكل واحد منهم يحلم أن يكون فرعون، بل أشد وحشية وقسوة من الفرعون.. وتربطهم بالفرعون علاقة نفسية في الخضوع والاستسلام، والاستمتاع بهذا الخضوع؛ لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون مقاومة أوضاعهم، بل هم لها مستسلمون ومتقبلون، فلا يملكون مفاصلة فرعون ومعاداته.. فيتجهون إليه، ويرتبطون به، ولا يرغبون في تغيير ما بأنفسهم؛ فحصلت لهم حالة من "التماهي" نتيجة قسوة فرعون، ورغبتهم أن يكونوا مثله، وتمني ملكه.. فهو في نظرهم "القدوة المثالية والمثل الأعلى المرهوب الجانب الراغبون في قربه طمعاً وخشية".

ويصحب هذا التماهي مع الفرعون، والخضوع له، ظهور حالة من الغباء المستحكم بين الجماهير؛ لعدم إعمال العقل ابتداء، ولعدم قدرته على النظرة الكلية للأشياء، فقد حوّلهم إلى قطيع كالسائمة، فتركوا قضية وجودهم في هذه الحياة، وتسخير ما في السموات والأرض من أجلها؛ فتحولوا إلى صورة أقرب إلى الأنعام أو أضل.. ثم يُغلّفون هذا الانحراف النفسي بـ "التماهي في الفرعون" والانغلاق العقلي بـ "النظرة المادية الإلحادية، وتركهم الأمانة التي حملها كل إنسان" يُغلّفون كل ذلك بادعاء "الحكمة والبصيرة"..

وفرعون يعرف نفوس الجماهير، ويعرف رغبتها وقابليتها للذلة والخضوع، ويعرف طمعها فيه، وخشيتها منه! ولا ينتظر منها مناقشة أو اعتراض أو مقاومة.. فهو يعتبرهم من مُلكه ومتاعه مثل الماشية وغيرها.. وهو بهم "مُستخف" مُستخف بهم كجماهير، و"مُستخف" بإنسانيتهم وحقوقهم، و"مُستخف" بعقولهم وفكرهم، و"مُستخف" بإرادتهم واختيارهم، فهو سلب عقولهم، وقتل أرواحهم ابتداء، وطرح فرعون لرؤيته حول رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو بالنسبة له مجرد تسلية، فلا ينتظر من الجماهير اعتراض أو مقاومة..

وهذا الاستخفاف، إدراك من فرعون لطبيعة الجماهير التي يحكمها وحالتها النفسية العامة؛ لذا أسلموا له الطاعة والانقياد والاتباع في كل شيء، وتبرير كل شيء، والتأكيد في كل مرة على "حكمتهم" و"صواب" مسلكهم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف (37)].

والفراعنة والطغاة يستخفون بالجماهير في كل جيل، ويُفسدون عقولهم، وقلوبهم.. ويرتبون أوضاع حكمهم ونظمهم للإفساد الممنهج للجماهير؛ حتى يسهل انقيادهم، ولا يحتاجون إلى قهرهم في كل خطوة، فالجماهير هي من تحمل الفراعنة والطغاة على أكتافهم! ثم تشكر الجماهيرُ الفراعنة.. أن سمحوا لهم أن يحملوهم! وهذه "القابلية" للاستخفاف من قِبل الجماهير هي بسبب فسوقهم..

"فسوقهم" عن أمر الله، "فسوق" نفوسهم التي تلذذت بالتماهي في الفرعون، "فسوق" عقولهم التي حسبت الحق والإيمان هو السلطان وأسورة الذهب، ومن يملكها فهو الرب الذي يَدينون له ويخضون، "فسوق" فكرهم الذي لا يزن إلا بالمادة ومن يملكها، "فسوق" حياتهم بالقبول أن يصبحوا متاعاً للفرعون.. "فسوق" نيتهم وهم لا يرغبون في الحياة الإيمانية الطيبة، بل يرغبون أن ينالوا يوماً مثل ما نال الفرعون من مُلك وسلطان.. فكان هو الفجور من الجماهير، والإصرار عليه، والرغبة فيه، وهو: الخروج عن حقيقة دورهم في هذه الحياة، وامتهان نفوسهم وقيمتهم وإنسانيتهم فخرجوا عن سبيل الله، واتبعوا أمر فرعون !

| | |

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وبعد تمام البلاغ، وسطوع الآيات، والتكذيب المستمر المتعنت، والعلو والاستكبار في الأرض بغير الحق، حق عليهم غضب الله، وسنته في أخذ المكذبين..

ولما كانت نفسية الفرعون، هي نفسية الجماهير.. كان مصيرهم واحد، وحق عليهم غضب الله فأغرقهم أجمعين، وسبق الحديث عن الآيات التي تتحدث عن الضعفاء والمستكبرين في نار جهنم.. بعد أن جمعهم الله فيها، وجعلهم الله عبرة ومثلاً للأجيال التي ستواجه الفراعنة والطواغيت.. وتحذرهم من الفسوق عن أمر الله، أو التماهي مع هؤلاء الطغاة، بل هي المقاومة والبراءة منهم، وتحذرهم من "الرضى والمتابعة" لهم.. فجاء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ...**" [صحيح مسلم/ 1856]

وعَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ...**" [المعجم الصغير للطبراني/ 264]

***



يقول الله تعالى في سورة الدخان:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّـهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّـهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

موضوع هذا الدرس في سورة الدخان هو "حتمية المواجهة" مع الباطل وأهله.. لقد طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستمع عباد الله لدعوته، وأن يترك فرعون بني إسرائيل؛ ويرسلهم مع موسى، إلا أن هذا الطلب قُبول بالرفض!

ولقد جاءهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآيات البيّنات، فإن هم بها كذبوا، فلا يعتدوا عليه، وليتركوه في دعوته السلمية هذه، ولكنهم لم يتركوه.. وتآمروا على قتله، وتعذيب قومه! رغم قول فرعون عنهم "شرذمة قليلة" أي جماعة قليلة حقيرة من الناس، فلماذا إذن كل هذا العدوان والإجرام؟!

ولكنها الجاهلية في كل زمان ومكان، لا تعرف الدعوات السلمية، ولا تؤمن إلا بحرية الفجور والفسوق والكفر والعصيان والعدوان، فإذا طلب المؤمنون – في جيل من الأجيال – أن تعتزلهم هذه الجاهلية وتتركهم في حال سبيلهم، لم تقبل بهذه العزلة – فالعزلة تكون بين طرفين – ولكن الجاهلية والباطل لا بد وأن يتحرش بالحق وأهله، فلا تطيق الجاهلية أن ترى الحق ولو ضعيفاً معزولاً؛ لأن مجرد وجوده يكشف على فساد وهوان وباطل هذه الجاهلية؛ فتحنق على الحق وأهله وتكيد له، وما كيدهم إلا في ضلال، وما مكرهم إلا على أنفسهم.

لذا وجب على أهل الحق إعداد العدة، والاستعداد ليوم المواجهة، وحسن التوكل على الله، واستفراغ الوسع، وبذل الجهد، وإبصار الواقع، واستبانة سُبل المجرمين، وهم على يقين بوعد الله أن "العاقبة للمتقين".

***

وهكذا نرى في ميدان المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون معالم بارزة عريضة وهي:

- التمسك بدعوة التوحيد، وربوبية الله وحده على خلقه لا شريك له. (من جانب موسى).
- التمسك بالكبر والطغيان، وادعاء أحقية الربوبية على قومه. (من جانب فرعون).
- حتمية الصدام بين موسى وفرعون.
- الدعاية الكاذبة، والهروب من القضية الأصلية. (من جانب فرعون وملئه).
- نور الإيمان يسطع رغم الطغيان. (إيمان السحرة، ومؤمن آل فرعون).
- حِلم الله ورحمته، مقابل تكذيب الآيات، وطلب المجرمين لها لم يكن للهداية، وإنما للتعجيز والتكذيب.
- هلاك فرعون، واستخلاف بني إسرائيل؛ لتواجه امتحان أصعب من مواجهة طغيان فرعون.

ونجد محاور المواجهة بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون تمثلت في:

- حقيقة الرسالة، ودعوة التوحيد لله وحده لا شريك له.
- قضية الربوبية والتعريف بها، وأن الله وحده هو رب العالمين، وهو الأحق جَلَّ جَلَالُهُ بالطاعة والاتباع والتسليم والخضوع والانقياد، وليس الفراعنة والطغاة.
- إصرار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على بيان القضية الأصلية.. دون الانحراف عنها إلى قضايا فرعية، والتمسك بحقيقتها وعدم التنازل عنها.

- المفاصلة التامة الواضحة بين دعوة التوحيد، ودعوة الفراعنة.

- أساليب الفرعون في المراوغة والجدال بالباطل.

- أساليب الفرعون في هدم الشخصية المعنوية لحامل الرسالة والدعوة.

- أساليب الفرعون في الاستخفاف بعقول الجماهير، وضبط انفعالاتها تجاه اختياراته.

- المكاشفة النفسية عن خبايا نفس فرعون، ونفوس الجماهير.

- التركيز على قضية الاستكبار من قِبل فرعون، والفسوق من قِبل الجماهير.

- التكذيب باليوم الآخر في صورته العملية، وما يترتب عليها من آثار.

- بيان دون الملأ من قوم فرعون، وأصحاب المصالح في نظامه، ودورهم في الحرب على دعوة التوحيد.

- ثورة الإيمان في نفوس السحرة يوم الزينة، وكيف يصنع الإيمان المعجزة الحقيقية.

- مؤمن في قلب نظام فرعون، مما يكشف عن هداية الله لمن أخلص قلبه لله، وتواضع للحق.

- خوض معارك البيان، والمفاصلة، والتحدي، والدعاية الكاذبة، والإرهاب والقتل، والاستئصال.. خوضها كلها مع التأكيد على القضية الأصلية دون حياد عنها طرفة عين.. قضية الاستسلام لله رب العالمين.

- بيان حقيقة النصر في إيمان السحرة، رغم إعمال الفرعون إرهابه وعذابه لهم.. لكن ذلك هو الفوز العظيم، وبيان حقيقة التمكين وهلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل بما صبروا، وبما استفرغوا به الوسع من جهد، ومن سنن.

- بيان القرآن الكريم لطبيعة الجاهلية وتوافقها في أحوالها القلبية والنفسية، بل وتشابه ردود أفعالها، وألفاظها في الأجيال المختلفة.

- إظهار القدرة الإلهية هي وحدها المدبرة لكل شيء، والقادرة على كل شيء، والمُقدرة لكل شيء.

وقد كشف القرآن الكريم عن الأمراض النفسية والفكرية التي أصابت فرعون، والتي أصابت قومه.. بفعل بيئة الاستبداد الواقعة فيهم، وسنلحظ عند مناقشة المحور الثاني – مواجهة موسى مع قومه من بني إسرائيل – كيف أن هذه الأمراض انتقلت بتمامها إلى نفوس بني إسرائيل، ورغم عداء فرعون لهم، وعدائهم مع فرعون.. كيف قلّدوا فرعون وقومه فيما أصابهم، رغم وجود اثنين من أنبياء الله فيهم؟! بل وكيف تطورت هذه الأمراض – فيما بعد – حتى صارت أشد فتكاً ووحشية من الفرعون ذاته ؟ وكيف انتشر بها الفساد في الأرض ؟!

***



فرعون الأمس كان صريحاً! واضحاً! وهو يبدو أمام فراعنة اليوم.. فرعون ساذج، سطحي لا يعرف كيف يمارس الفرعونية ويستذل الجماهير بحق! فقد قطع الفراعنة من بعده شوطاً كبيراً في الكبر والطغيان والفساد والإفساد حتى صاروا أساتذة وأصحاب فن.

فرعون الأمس كان يغضب سريعاً، ويكشف عن خبث طويته في سذاجة، لا تحتاج إلى كبير جهد لبيانها أو كشف خباياها – سوى الإشارة إليها – فقد قال: "ما علمتُ لكم من إله غيري " "أنا ربكم الأعلى" وكان يتهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتهم الواضحة المباشرة: (ساحر، كذاب، يبدل دينكم، يظهر في الأرض الفساد) وكان لسذاجته يقبل التحدي المباشر مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فينهزم وينكسر، كانت معركة المفاصلة تتم بسهولة، لا سيما عندما يكشف فرعون عن ظلمه وظلامه – بلا مدارة – فكان فريق المؤمنين وفريق الكافرين في حالة من الوضوح التام، والمعرفة الحقيقية، وما على الإنسان سوى الاختيار..

وإذا شاهد فرعون الأمس فراعنة اليوم لعلم كم كان هو محدوداً وتافهاً، لا يعرف كيف تكون الفرعونية؟! وإن كان هو قد سبقهم وصار إمامهم إلى النار!

إن فراعنة اليوم تمارس أشد صور الخداع، وأبشع صور استلاب العقول.. إن فراعنة اليوم لا تقول كما قال فرعون: "أنا ربكم الأعلى" أو "يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى" كلا.. إنها تقول: تحترم الأديان، ولا تؤمن بدين! إلا دين التسلط والاستعباد الناعم على الناس! ولا تصطدم الاصطدام المباشر، إنما الاصطدام من وراء ستار، وتحت شعارات الحرية والعدالة ونشر الديمقراطية! وتُعلّم الفراعنة الأغبياء الذين يُقلّدون فرعون الأمس أن يكونوا أكثر حكمة وذكاء؛ ويُفهمونهم أن "الاستعباد الخشن" لا يدوم، ولا بد من "الاستعباد الناعم" الذي

ينسج خيوطه حول عنق الإنسان؛ فيستلب حياته، وفكره، وعقله، ويجعله أسيراً للطغاة دون أن يدري!

تظهر الفراعنة اليوم ليست في صورة تحدي فرعون الأمس لبني الله، بل تظهر في صورة من التواضع المتصنع! تظهر لا لتقول كما قال فرعون مصر: "أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟" بل تظهر لتقول: إنما نحن خدام لهذا الشعب، من أجل هذا الوطن، نعمل ليل نهار من أجل راحة الشعب ومستقبل أولادكم... إلخ!!

فرعون الأمس كان لمن خلفه من قومه – ومن غير قومه – آية وعبرة ومثلاً، أما فراعنة اليوم فهي تعيش أدوار البطولة في الدنيا، وبعد الممات يتخذها السفهاء رمزاً، ويختلقون لها ألقاب "الزعامة " و"القيادة" و"الحكمة"!

فرعون الأمس جمع السحرة "يوم الزينة – يوم العيد" فكان تأثير السحر ضعيفاً محدوداً، أما فراعنة اليوم فقد أطلقوا السحرة في كل مكان، وفي أي وقت؛ لتحسر عقول الجماهير، وتستخف بها، وتصرفها عما ينفعها في دينها ودنياها، وتظل عملية استلاب الوعي، واغتصاب العقول، تتم بصورة مستمرة؛ لتخنق صوت الحق المخنوق الذي يهمس أو يعلو هنا أو هناك.

عِلم السحرة بالأمس – رغم عظمته – قد لا يساوي شيئاً أمام علم سحرة اليوم في فنون الخداع والتأثير واسترهاب الناس، والقدرة على هندسة انفعالاتهم، وتكوين أفكارهم، وردود أفعالهم، وإقناعهم بكل شيء، وقبولهم لكل ما يفرضه السحرة المحترفون العلماء على الجماهير.

فرعون الأمس حارب الدين بصورة سافرة مباشرة، فكانت المفاصلة واضحة، أما فراعنة اليوم فهم يَدعون أنهم حماة الدين، ولا يُسفرون عن صورة مباشرة من العداء.. فراعنة اليوم تتخذ من الدين وسيلة ومطية؛ لترسيخ فرعونيتها، وإعطائها "الشرعية" باسم الدين ذاته!

***

وإن معركة المؤمنون بالأمس، هي نفس معركتهم مع الفراعنة اليوم، مع اعتبار:

- احترافية فراعنة اليوم وخداعهم.
- ظهور الفراعنة في ثوب الحق والحكمة والعدل.
- محاولة الفراعنة التماهي مع أهل الإيمان، والتقرب منهم.
- استخدام الفراعنة الدين ذاته؛ ليكون هو وسادة الأمان من عدم مقاومتهم.
- احترافية سحرة فرعون في مجال الخداع والتأثير، وعدم توبتهم كما تاب الأولون.
- احترافية نظام فرعون في ذل الناس بلقمة العيش أو باللهو المُفسد.
- احترافية نظام فرعون في نشر الإباحية والفساد وتدني الأخلاق.
- احترافية الفراعنة عدم الجهر بمعاداة دعوة التوحيد.
- احترافية الفراعنة إخماد الثورات؛ وتحويل حقيقة الصراع فيها على التخلص من استعبادهم إلى الصراع على متاع الدنيا.
- احترافية الفراعنة في فهم هذا الدين؛ لضرب مفاصله، والقضاء عليه، مع بقاء الشكل واليافطة.. دون استفزاز الجماهير.

إنها معركة كبرى، أفرد لها القرآن الكريم مساحة كبيرة في سورة كثيرة متفرقة؛ لتُبين للمؤمنين.. سُبل المجرمين، وحقيقة الصراع، وطبيعة المعركة، واستحقاقات شهادة التوحيد، وضريبة الحرية التي هي أقل بكثير جداً من ضريبة الذل.. إنها معركة طويلة النَفس؛ تحتاج إلى صبر وتخطيط طويل، لا تنفع فيها الحماسة الوقتية، ولا العشوائية، معركة يواجه فيها المؤمنون أفحش أجهزة الاستخبارات العالمية التي تضم أقوى عقول البشرية، عقول تم اصطفائها منذ نعومة أظفارها؛ لتتلقى أقوى وأرقى العلوم؛ لتكون هي صناعة القرار في المستقبل! ولا يمكن أن تُقابل بعقول "سفهاء أو دراويش أو صغار" مهما كان إخلاصهم ورغبتهم في انتصار الدين، وهزيمة الفراعنة !

إنها معركة كبرى يجب أن يفكر فيها رجال دعوة التوحيد والحرية، بعقلية "رجال الدولة" لا عقلية "الصغار" عقلية رجال الدولة الكلية الشاملة، التي تنظر من أعلى، وإلى معالي الأمور، وتهتم بالأهم فالمهم؛ وتُعد لكل أمر عدته.. وتخطط لرؤية بعيدة المدى، وتتحرك وفق خطوات مدروسة، عقلية خالية من هاجس إدانة الناس والحكم عليهم، عقلية قادرة على ضبط مسار الصراع بقوة ودقة، وعدم الخروج بالصراع لمعارك تافهة صغيرة جانبية؛ تستنزف الطاقات، وتفسد العقول والقلوب.. وتقوي جبهة الفراعنة! عقلية مرنة غير متصلبة تستطيع التوظيف والاستفادة من كل حدث، لا تفجير وإفساد كل فرصة بحجة سلامة العقيدة ! عقلية قادرة على كسب ود الناس، ومخاطبة عقولهم واهتماماتهم؛ وضم الكثير منهم إلى دعوة التوحيد والتحرر من الطغاة، وتحييد من لا يستجيب، عقلية لا تضرب في خبط عشواء، بل تحسب حسابها لكل صغيرة وكبيرة؛ وتنفذ أهدافها بصورة نوعية مؤثرة بأقل تكلفة، عقلية تتسع لتحتوي كل الناس بضعفها وجهلها وسفهها وبدعها، عقلية تستطيع رسم وتخطيط التوقيت المناسب، والمكان المناسب لمسرح عملياتها؛ وتستهدف تحرير الناس، وإنقاذهم، وإقامة الحق والعدل فيهم.. عقلية تعرف أنه لا بد من الرحمة والتسامح وخفض الجناح واللين والرفق مع عموم الناس، ومع كل مُسالم، وتعرف أنه لا بد من القوة والبأس والجهاد مع الفراعنة وجندهم، فهم على يقين من عدم تسليم الفراعنة، وأي لين منهم إنما هو لين الأفعى لتنفث سمومها في جسد المؤمنين.. عقلية ترى حتمية الرحمة والتسامح مع عموم الناس، وضرورة مواجهة وعلاج أمراض الاستبداد، وقدر الجهاد مع الفراعنة وجندهم! ولا تُسلم نفسها للفراعنة مهما كان الاستسلام والتراخي منهم، بل عقلية عينها على مفاصل القوة ومراكز التحكم فيها، تريد الوصول إليها بأقل تكلفة، وبأدنى خسائر؛ لتحييد وسلب قوة الفراعنة والطغاة، ومنعهم من العدوان والإفساد، عقلية تُظهر للناس بصورة عملية أنها غير طامعة في حكمهم، ولا في تملكهم.. بل تحريرهم من عبودية البشر، ومن الظلم والطغيان، وتضع عنهم أغلال الفراعنة، وآصار القهر والذل، وهدفها حماية الشرع وصيانته، ورد أي اعتداء عليه.. فتترك للناس حرية إدارة شؤونها وفق مراد الشرع، ودعاة الحرية الحقة هم فقط لحمايتهم من أي اعتداء يريد أن يردهم عبيداً للفراعنة مرة أخرى.

إنها معركة كبرى يجب استكمال سنن النصر والتمكين فيها، واستفراغ الوسع، وإعداد كل قوة ممكنة.. معركة يجب الإخلاص فيها لله، وذكره كثيراً.. كثيراً حتى لا يبق في النفس حظ من مُلك أو سلطان أو متاع..

معركة جاء الوعيد والهزيمة فيها لفرعون، ولكل طاغية من بعده:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

***



خاتمة

لقد استعرض القرآن الكريم قصة فرعون هذه بصورة تفصيلية شاملة؛ لما يمثله الفراعنة، وسلوكهم، وفكرهم من خطورة بالغة على الإنسانية كلها، وعلى مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، فالفراعنة – ومن سلك طريقهم تحت مسميات أكثر بريقاً وجاذبية اليوم – يدمرون الحياة الإنسانية، ويستعبدون البشرية لصالح أهوائهم وشهواتهم، فالإنسان تحت أنظمة الفراعنة يخسر الدنيا والآخرة إن استسلم لهم، أو صدق دجلهم، أو تقاعس عن ضرورة الفكاك من أسرهم..

لقد جالت آيات القرآن الكريم مُشرّحة واقع النظام الفرعوني، والبناء النفسي والفكري والتربوي لشخصية موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلك البناء النفسي والفكري لشخصية فرعون.. ثم بيّنت الآيات الكريمات أساليب المواجهة لدى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأساليب المواجهة لدى فرعون، وكيف أن هذه الوسائل تتكرر هي هي عبر التاريخ؛ ولتعرف الأمة المسلمة كيف ستواجه فراعنة اليوم، وكيف ستتحرر من أسرهم؟

لقد كان واقع النظام الفرعوني "واقعاً إرهابياً" قائماً على القهر والاستعباد والتفرقة بين الناس، وتعذيب وقتل المخالفين لمجرد اختلافهم مع الفرعون، أو أنهم قد يكونوا أصحاب تهديد محتمل لعرش فرعون.. والجماهير الفاسقة المخدوعة تُصدق "شرعية" القتل والتعذيب حسب مزاج الفرعون وشريعته بدعوى الحفاظ على الدولة، والاستقرار، والتنمية والرخاء، واختزال الحياة والدين والدولة والمجتمع في شخص فرعون..

وتعمل الدعاية الكاذبة، والسحرة، والدجالون على تسهيل مهمة استساغة هذا الكذب والدجل ونشره بين الجماهير، وجعله هو معيار وميزان الحق والعدل! ويساهم الملأ أصحاب المصالح المادية والاجتماعية وطبقة المترفين بالتمويل والدعم؛ لنشر الكذب والدجل بين الجماهير، وتزيف وعيهم،

وقلب فكرهم وموازينهم؛ لتسهيل عملية استعبادهم، وقيادتهم، وتوظيفهم في معركة الدفاع عن عرش الفرعون، وعندما تستسلم الجماهير للكذب والدجل، وتحتقر أنفسها، وتستعذب عبودية الطواغيت والفراعنة، ولا تفكر في المقاومة، ولا تشعر قيمة إنسانيتها.. نجدها تبذل أنفسها لعرش الفرعون حتى دون أن يكون هناك مقابل لذلك سوى "الأمن المؤقت" من إرهاب فرعون.. و"اللذة المؤقتة" التي يطلقها نظام فرعون؛ لتخدير الناس عن الالتفات لقضاياها المصيرية؛ فيصبح قوم فرعون مثله.. قوماً فاسقين.

ويصبح من يقبل ويؤيد ويبارك فعل فرعون – حتى ولو لم يستفد منه شخصياً أو أصابه العناء من سياسة فرعون – هو شريك له في العذاب الأخروي.. كما قال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾[هود (98)]. فالنجاة في الدنيا والآخرة من هؤلاء الفراعنة هو طريق واحد.. طريق المقاومة والجهاد، ورفض باطلهم وظلمهم، ورفض شريعتهم، وطغيانهم.. فهي "شريعة الشيطان" وعبادة شياطين الإنس، فهؤلاء الفراعنة يَدّعون "الربوبية" على خلق الله، ويسلبون حياة الناس؛ لإرضاء "وحش الاستكبار والغرور" في نفوسهم.. وهذا الوحش يغذيه شيطانهم كل يوم، ولقد زعم فرعون لنفسه الربوبية على قومه، بل زعم الألوهية أيضاً.. وأوهم الناس بأنه من نسل الآلهة... إلخ من الخرافات الكاذبة التي يكون غرضها استغلال الناس واستعباد الأمم لخدمة بشر مثلهم، لم يجد من يقاومه، ولا من يرغب في مقاومته؛ حتى انتفش.. وعلا باطله حيناً من الدهر، ثم هلك.. وأهلك معه أمم من الناس!

وفرعون ذاته هو عبد لذاته وشهواته وعبد لفتنة السلطان، والتسلط على البشر، هذه الفتنة التي ما أن يتذوقها الإنسان أول مرة، يجد فيها شعور غريب يتسلل إليه لم يكن يتذوقه من قبل، فهو بشر مثلهم، ولكن الناس ترهبه، وتركع له، وتخضع إليه، وتتطلع إلى نظرته ورضاه، وتهابه.. مظاهر العبودية هذه عندما يتذوقها بشر، ويتذوق معها لذة السيطرة على المُلك ومتاعه، تستبد بالإنسان – إلا الأفذاذ من الراشدين الذين يطردون هذا الشعور عن قلوبهم، ويتحررون من أسر هذه الشهوة المُهلكة – وتستعبده حتى إنه ليبيع كل شيء، ويضحي بكل شيء من أجل البقاء في هذه السلطة،

ولقد شهد التاريخ من يقتل ابنه وأخاه وأهله، ومن يدمر بلاده، ومن يحطم كل شيء من أجل البقاء في السلطة، ويتلذذ بعبادة الناس له!!

ويدخل الشيطان من باب "فتنة المُلك والسلطان"؛ ليُزين لكل فرعون وطاغوت كل قبيح، ويُحلل لهم كل جريمة، ويهتك كل فضيلة.. باسم الاستقرار، وعدم قلب نظام الحكم، والحفاظ على الشعب والدين... إلخ، فالفرعون عبد للشيطان، وجند فرعون عبيد لفرعون، والجهاز الأمني لفرعون يستبد بالشعوب المستعذبة للاستضعاف والقابلة للمهانة، ويستبد فرعون بأدوات قهره للناس "المال، والعذاب"؛ حتى تظل الجماهير بين رجاء عطاءه، وبين خوف عقابه.. وهذه الحلقة المهلكة من العبودية للبشر.. تدمر حياتهم، وتُضيع آخرتهم، فهي إما طاعة السادة والكبراء، وإما طاعة الرسل ومن مضى على سنتهم: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب (67)].

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبتلي الناس بعضهم ببعض.. فهذه الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وليست دار عدل وجزاء، وإذا استوعبنا هذا المعنى جيداً سنستطيع أن نفهم لماذا أخذ فرعون وأمثاله فرصة في هذه الحياة الدنيا؟ لأن الخير والشر فيها قائم على "الاختيار الإنساني الحر" والذي سيُجزى عنه في دار العدل والجزاء – في الآخرة – ولأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الحياة الدنيا لا "يقهر" الإنسان على فعل شيء، بل هو حر الإرادة في إتيان الخير، أو اقتراف الشر، وكل ذلك لا يخرج عن المشيئة الإلهية الكلية المهيمنة على الوجود كله، فلا يقع شيء إلا بإذنه، وعلمه، وقدرته، فهو قائم على كل شيء.

ومن جانب آخر، فإن وجود فرعون وإرهابه وظلمه لم يكن إلا بسبب تقاعس الناس عن إيقاف ومقاومة هذا الظلم، ولو أنهم غيروا ما بأنفسهم من موازين باطلة، وتفتحت فطرتهم لدعوة الحق والإيمان المبذولة لهم؛ لتغير هذا الواقع وتحرروا من أسر فرعون وإرهابه.. ولكنهم عبدوا القوة والطغيان الذي امتلكه فرعون، وداروا مع صحاب الطغيان – لا صاحب الحق – حيث دار..

بل من رحمة الله ألا يُعجل الناس بالعذاب في الدنيا.. بل يمهلهم كثيراً، ويبتليهم بالخير والشر لعلهم يرجعون، ولو آخذهم بذنوبهم ما ترك على من دابة: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا

تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[النحل (61)].

ومن رحمته أيضاً أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وينزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، فأرسل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمواجهة فرعون، وهذا الفرعون اللعين الذي ملأ الأرض إرهاباً وظلماً للإنسانية – وإذا كان فيها حضارة مادية وعمراناً.. فلا قيمة لهذا العمران إن انتهكت كرامة الإنسان، واسُتعبد تحت أي دعاوى كاذبة.. فالإنسان أغلى من الحجارة مهما تجملت!! – هذا الفرعون يُهلكه الله بـ "محبة" أُلقيت على موسى وهو طفل رضيع.. إذ كانت خطة الفرعون قتل الأطفال خوفاً على عرشه من الهلاك والدمار، فيكون هلاك فرعون بأبسط وأهون الأشياء، وأبعدها عن النظر والتوقع، وفيها سخرية من بطش فرعون، فماذا يملك فرعون؟ لا شيء.. سوى الغرور ووساوس شياطين الإنس والجن؛ لإفساد الناس والحياة، واستسلام الناس لبطشه، هذا الذي زعم الألوهية والربوبية على قومه يكون هلاكه عندما يصل طفل رضيع إلى قصره..

لينشأ هذا الطفل – موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – في هذا الواقع؛ ليكون على إطلاع واعٍ لكل ما يدور فيه، وليعرف "سبل المجرمين"، فلا يكون في غفلة عنه، ولا جهالة عن أبعاده، ومدى فساده.. ومن بعد حياة القصور، يهرب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد التآمر على قتله، فيخرج خائفاً يترقب أن يطاله ظلم فرعون وجنده، وفي كل هذه الأحداث "تربية عملية"؛ لبناء شخصية موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ ستواجه بعد قليل أصعب مهمة إنسانية، وهي: مواجهة فرعون بكل جبروته، ومواجهة قومه بأمراضهم!

يخرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليخالط نوعاً جديداً من الحياة غير حياة القصور؛ وليخبر الحياة خبرة متنوعة من كل أبعادها؛ لتساهم في صقل تلك الشخصية، ونحتها بخبرات الحياة.. والشخصية التي تجرب الحياة بصورها المختلفة (الناعمة والخشنة) وتصمد وتتعلم هي الشخصية الصبورة القيادية التي تخبر الحياة والإنسان وتكون أكثر سعة ومرونة، ولكن ذلك لم يكن كافياً أمام ضخامة المهمة.. بل لا بد من "جرعة إيمانية" ضخمة وهائلة؛ لتكتمل شخصية موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكان هذا اللقاء الفريد – عند الشجرة – لقاء الله جَلَّجَلَالُهُ بموسى، وكلام الله له (على النحو الذي يليق بجلاله وكماله) إذ يقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ له: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[القصص (30)]. فيا لها من

كلمة تقشعر له الأبدان ونحن نقرأها الآن، فما بالنا بمن تلقها حية أول مرة؟! لا شك أنها حطمت كل خوف، وحررت كل شعور، وأطلقت كل طاقة.. فكان ميلاد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي سيقف لفرعون.

وكانت مهمة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي بلاغ الرسالة لفرعون من رب السموات والأرض، فإذا آمن فلله الحمد والمنة، وإن لم يفعل فليترك بني إسرائيل وليحررهم من هذا الأسر والاستعباد، وألا يعذبهم.. ورغم أن الخيارات كلها تبدو في صالح فرعون.. فهي دعوة للإيمان قامت عليها الحجج والبراهين الكثيرة، ومع ذلك فهو في حرية من أمره إن شاء آمن، وإن شاء كفر، والمطلوب منه: أن يُرسل بني إسرائيل مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويخرجوا من نظام فرعون السياسي والاجتماعي، فلن يتم لهم الإيمان والحرية وهم تحت "شريعة ونظام فرعون" فلا بد من الفكاك من هذا الأسر، ولكن فرعون "استشعر" الخطر البالغ من مجرد الطعن في شرعيته أو ربوبيته – على حد زعمه – فاعتبر دعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ "إفساداً في الأرض" بل "وتبديلاً للدين" !! ولذلك لم يستجب لدعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رغم استجابة موسى لطلب فرعون في الأدلة والبراهين على ربوبية الله، والآيات المعجزات التي جاء بها موسى.

فأعمل فرعون كل أجهزته وأنظمته على محاربة دعوة موسى بكل وسيلة؛ لضمان ولاء الجماهير له، ولضمان بقاء غفلتهم وانخداعهم كما هو، حتى لا يطالبوا بالحرية وبالحقوق..

فعملت آلة الإرهاب والقتل، وعملت آلة الدعاية الكاذبة وترويج الأباطيل، وعملت آلة الرشوة وإمتاع الموالين، وعملت آلة إزدراء موسى وقومه، وعملت آلة السخرية والاستهزاء، وآلة التجهيل واستلاب العقول... إلخ، ولكل طاغية وطاغوت "جهاز إعلامي" يُزين كل قبيح في نظر الناس، ويقلب لهم القيم والموازين، والذوق والشعور، ويجبرهم ويقهرهم على رؤية الخراب والدمار عظمة وإنجازاً! ورؤية الفساد والإفساد حكمة وحضارة! ورؤية الفشل والضياع تخطيطاً ونجاحاً! وفي المقابل رؤية الحق والعدل إرهاباً وشراً! ورؤية الاستقامة والعفاف انحرافاً وتخلفاً.. فيُصدق الكذاب، ويُكذب الصادق، ويُخون الأمين، ويؤتمن الخائن.. وبذلك فمهما أدت سياسة فرعون من فساد وإفساد، لن تزيد العبيد إلا اقتناعاً بعظمة فرعون!

كل ذلك من أجل حماية الباطل، والجماهير تصفق لفرعون، وتصدق الفرعون، وتغتر بالقوة الظاهرة لفرعون.. حتى هلك فرعون، وهلكوا معه!!

ثم يدور الزمان دورته، وتتجدد "الفرعونية" في ثوب جديد، براق، بدعاية شيطانية، هدفها تدمير الإنسانية، واستعباد الإنسان تحت دعاوى "الحرية" تارة، و"الرأسمالية" تارة، و"الشيوعية" تارة، و"الإلحاد" تارة، و"الشذوذ" تارة، و"تدمير الفطرة السوية" تارة... إلخ، خطط شيطانية تهدف جميعها إلى "استعباد" الإنسان مادياً وروحياً، فكرياً وسلوكياً؛ حتى لا تتركه إلا عند لحظة الغرق.. لحظة هلاك الفرعونية وأتباعها.

وتتطور وسائل القهر والبطش والتعذيب، والكذب والخداع، والتجسس والمراقبة، والإغراء والاستمالة، والسخرية والاستهزاء، وتدمير المجتمعات.. بما لا يخطر على الفراعنة الأوائل ببال، ثم يسترون جريمة ذبح الإنسانية، وتدمير الإنسان، بروعة "الحضارة المادية" وبالتطور المذهل في عالم المادة؛ ليتخذوه دليلاً على صحة مسلكهم، واستقامة طريقتهم.. وما ذلك إلا غروراً يعميهم عن رؤية الحق والإيمان ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾[مريم (74)].

ولا بد من تحرير الإنسان، وصيانة فطرته، والحفاظ على إنسانيته من الخطط الشيطانية الفرعونية، التي هي في النهاية عبادة للشيطان مهما تجملت وتزينت! وهذه هي مهمة "الأمة المسلمة" المتبعة "كتاب ربها".. ولن تضطلع هذه الأمة بمهمتها – والتي تنتظرها كل البشرية – إلا عندما تصح هي ابتداء، وتتطهر مما أصابها من "أمراض"؛ لتعود خير أمة أخرجت للناس.

***

المراجع:

تفسير القرآن الكريم:

- الإتقان في علوم القرآن.
- أحكام القرآن لابن العربي.
- أسباب النزول.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.
- البرهان في علوم القرآن.
- التحرير والتنوير.
- التفسير الكبير المسمى البحر المحيط.
- التفسير الكبير.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير البغوي.
- تفسير الطبري.
- تفسير القرطبي.
- تفسير المنار.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية.
- في ظلال القرآن.

الحديث الشريف:

- السنن الكبرى للبيهقي.
- المستدرك على الصحيحين.
- المعجم الصغير للطبراني.
- جامع الترمذي.

- صحيح البخاري.

- صحيح مسلم.

- مسند أحمد.

كتب:

- تاريخ الطبري.

- شخصية فرعون في القرآن – قاسم توفيق قاسم خضر "رسالة ماجستير".

***

فهرس

الجزء الثاني



أمراض الاستبداد

المواجهة بين موسى وقومه من بني إسرائيل وتشابه ذلك مع بعض أحوال الأمة المسلمة



قريباً إن شاء الله